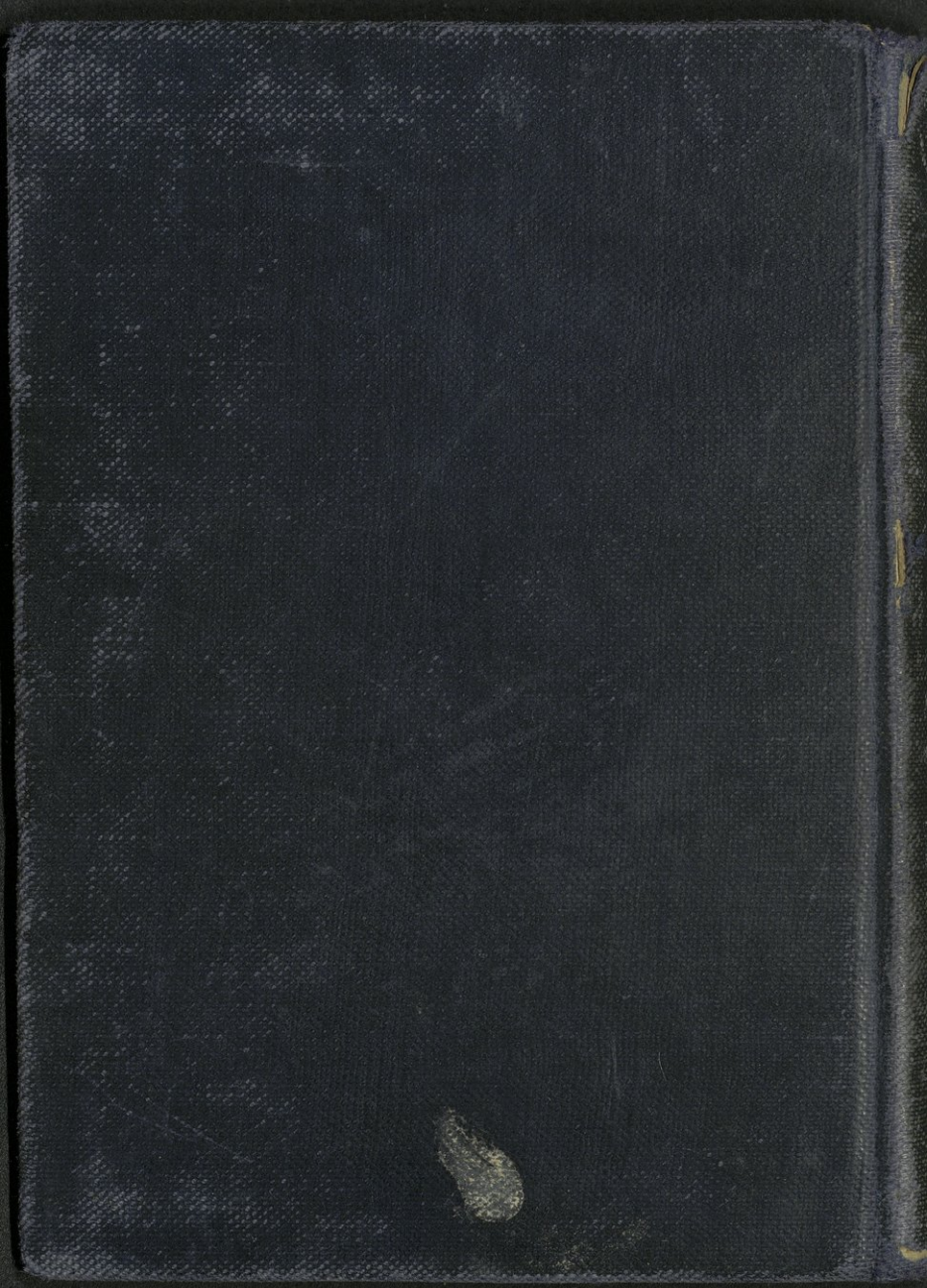
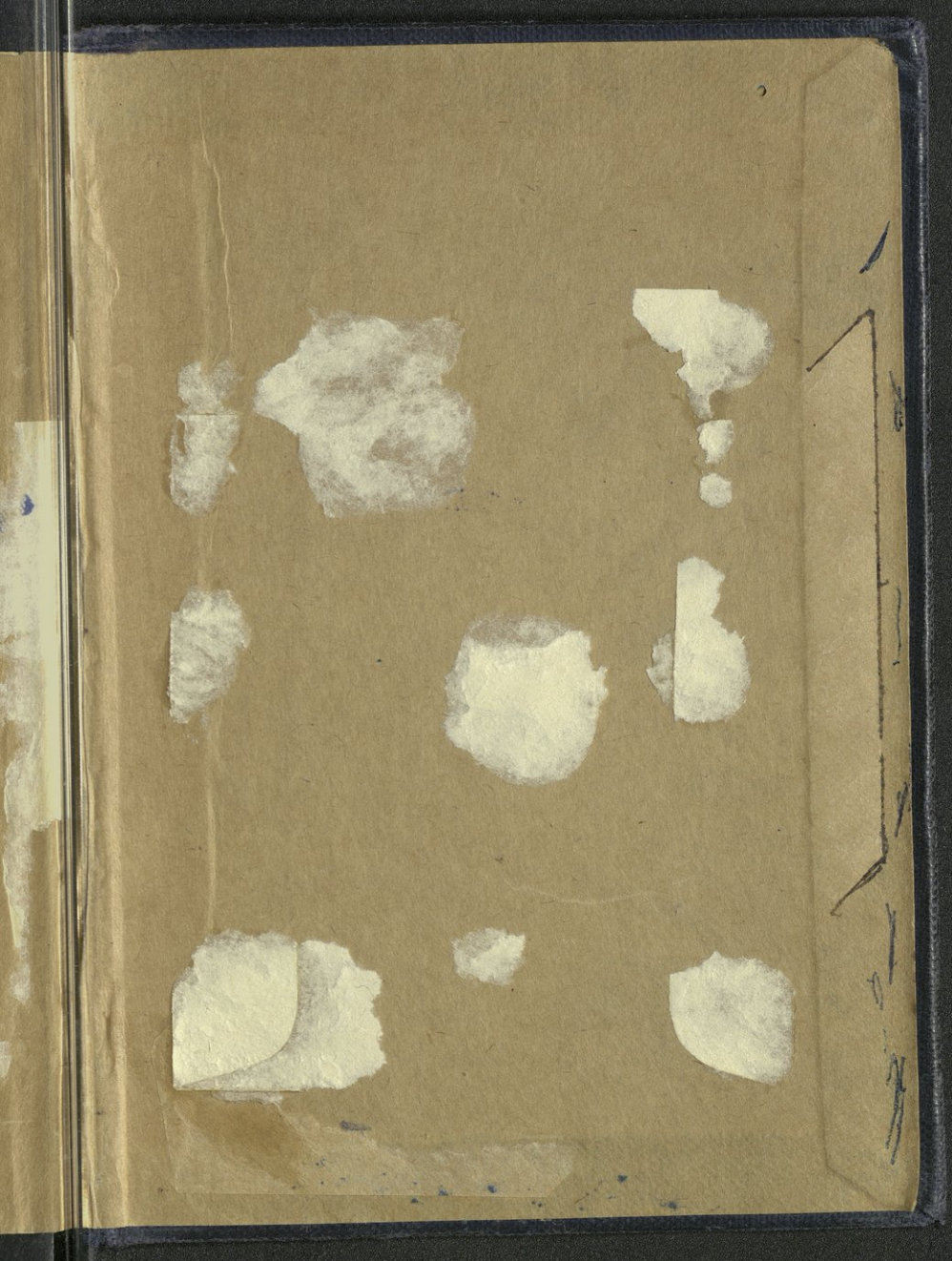
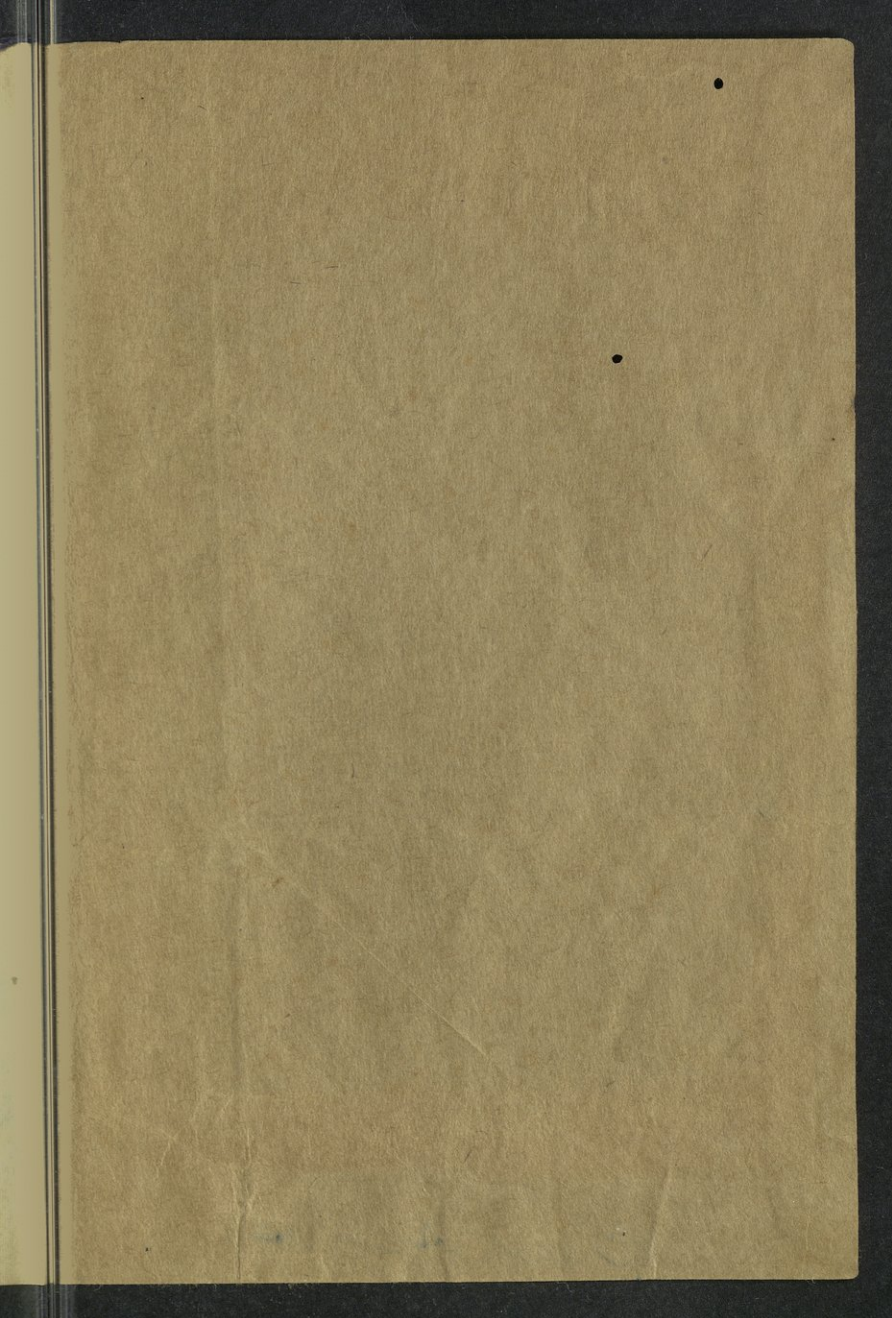






تصویر نسیه بافتن بر سره ماهی



سفر اديب

١٠٠

روابط الفكر والروح

المؤلف

افاعي الفردوس

الالخان

نداء القلب

الى الابد

غدير

القشيرة

روابط الفكر والروح

بين العرب والفرنجة

طبع من هذا الكتاب ثلاثة آلاف نسخة على ورق جيد
وعشر نسخ على ورق فاخر مرقمة من ١ الى ١٠ .

الطبعة الثانية ، ١٩٤٥

جميع الحقوق محفوظة

لکھنؤ یونیورسٹی

809

A524Y2A

C.1



روابط الفكر والزواج

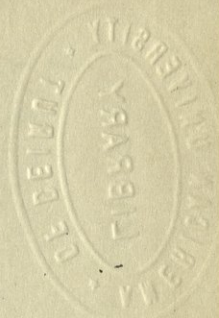
بين العرب والفرنجة

1920
1920

59623

Car. Nov. 1946 Gift. French legation

منشورات "دار المآخذ" كشف



كتاب الفقه الحنفي

كتاب الفقه الحنفي

كتاب الفقه الحنفي

فرنسا الادبية

يكفيننا ان نلقي نظرة على الجغرافيا ليتضح لنا ان فرنسا هي اعظم جرم بري في العالم ، ولذلك انتهت اليها حتماً جميع الحركات الشعبية او الفكرية التي تمخضت بها اوروبا وآسيا ، واصبحت الملتقى المحتوم لجميع المنازع الكبرى التي حركت عقول البشر .

وقد لا نخطئ اذا قلنا ان فرنسا هي ثدي العالم وان معظم الحركات الاجتماعية والسياسية والادبية رضعت من هذا الثدي . وسنقصر بحثنا هذه على الحركة الفكرية في الشرق وعلاقة فرنسا بها . ففرنسا الفضل الاكبر على جميع الحركات الادبية التي قامت في اوروبا اولا وفي سائر بقاع الارض اخيراً . فان تكن فرنسا اهدت في آداب الامم الاخرى الى غداء قوي لها فقد ادت الى هذه الآداب خدماً لم يكن لها

غنى عنها اذ نشرتها في جميع اجواء الارض . فلولا فرنسا
لم يكن لآداب الامم هذا الذبوع العظيم في مشارق الارض
ومغارها .

ففي النصف الاول من القرن السابع عشر كانت باريس
المركز الوحيد للمعارف الاسبانية ، فقامت طائفة من الادباء
بترجمة ما ينتجه الادباء الاسبان الى اللسان الفرنسي . وقد
يعود الفضل الى هذه الطائفة في انتشار الآداب الاسبانية ،
حتى لنستطيع القول بانه لولا المترجمون الفرنسيون لما عرف
سرفنتس المجد العالمي ، ولولا كورنيل وموليير لما فتحت
ابواب الشهرة للمآسي والمهازل الاسبانية ، فما اصبح « السيد »
و « دوت جوان » بطلين اوروبيين الا لانهما ارتديا اللباس
الفرنسي .

وفي القرن الثامن عشر اكتشف فولتير للمرة الاولى سحر
الادب الانكليزي ونشره في اوروبا . ومنذ ذلك العهد كبر
الاهتمام بادباء الانكليز والحضارة الانكليزية في جميع انحاء القارة
الاوروبية . واذا كان ثمة من يقول ان المذهب الرومنطقي
الفرنسي تأثر بالادب الانكليزي فما لا شك فيه انه لولا العبقرية
الفرنسية التي تمثلت بفولتير - اي لو لم يكتشف فولتير

شكسبير وينشره في فرنسا ثم في أوروبا — لما كان الادب الانكليزي سار سيرته هذه في العالم .

وفي منتصف القرن الثامن عشر شرع الادباء الفرنسيون يهتمون بالادب الالماني . وكان الاوروبيون لا يقرأون من نتاج الفكر الالماني قبل ذلك العهد الا ما له علاقة باللاهوت والشرع والفلسفة . والواقع ان الشعراء والقصاصين والمؤلفين المسرحيين الالمان كليسنگ وكلوبستوك وهردر وغوته فيما بعد ما عرفوا في أوروبا الا منذ العام ١٧٥٠ .

اما فينا ، عاصمة الامبراطورية الرومانية الجرمانية طوال قرون ، فكانت تجذب اليها وتستقبل الصفوة الأوروبية التي حملت اليها نفوذ الآداب الفرنسية . ولا يزال الادب النمساوي (وهو اليوم يعيش في فترة تراث وانتقال) ممثلاً بالكتّاب والشعراء الذين عاشوا في العام ١٩٠٠ وبالذين تحدروا منهم ، اي بوراث ذلك العهد الثقافي الذي أشرب في روحه الانطلاق والحرية المستمدتين من الفكرة الفرنسية .

واما الادب البولوني الحديث فقد اجمع النقاد على القول بأنه متأثر بنفوذ حاسمين ، بنفسية بروست الواقعية ونفسية جويس الانطباعية . وليس ادل على تأثر البولونيين بفرنسا من

القول البولوني المأثور : « ان الله لا يسمع وفرنسا بعيدة . »
وقد تعود البولونيون اطلاق هذه الصرخة كلما حلت بهم نكبة
وشخصوا الى فرنسا التي أشربوا روحها وثقافتها .

وُبعد الحرب الكبرى الماضية ، عندما اصاب اليوغسلافيون
من مطاعهم الوطنية حتى اكتفوا ، راح الانتاج الادبي
يستوحي الحماسة الوطنية على الخصوص ، وسرعان ما ظهرت
بوارد شعر غنائي مدموغ بطابع برناسي ورمزي جاء في مطلع
القرن من فرنسا .

وما يقال عن الادب اليوغسلافي يقال عن الادب المجري ،
فرجال الفن المجريون وطلاب السيادة على الفكر المجري
لا يجدون امنيتهم الا في باريس ، فبالرغم من السياسة التي
افضت بالجر الى الوقوف موقف الحليف من المانيا نجد الافكار
الفرنسية تتسرب في كل مكان ، فالكتاب الشيوخ والشبان
يقرأون ادباء فرنسا ويحبونهم ، والقراء يقبلون على الكتب
الفرنسية او على ترجمات هذه الكتب باللغة المجرية . وتماز
المجر بكتاب مختصين بالادب الفرنسي دون سواه كمرسيل
بنديك الذي كان يساهم عن طريق الراديو في تحبيب اللغة
الفرنسية وادباء فرنسا الى المجريين ، والبرت جيرجيه الذي يحرر

في مجلة « الغرب » وقد ألف كتاباً عن القصصين الفرنسيين
وآخر عن القصة الفرنسية في يومنا هذا وترجم بروست وجيد
وكلوديل وجيرودو وفاليري وجيد .

والادب الاسوجي مدين بكثير لفرنسا ، لموبسان وفلوير
وزولا وبودلير وبروست .

وقد حاول بعض الادباء الاسوجيين في اواخر القرن التاسع
عشر - وهو اجد عهد من به الادب الاسوجي - ان يخرج
بهذا الادب من رتبة الواقعية الفرنسية التي تسربت اليه من
تأليف اميل زولا فلم يفلح ، وظلت هذه الواقعية ممثلة باسمين
عظيمين ، بفرنز ده هيدنستام الذي رأى فيه جيله زعيماً
لرومنطيقية جديدة ، وهو شاعر وقصاص من الطبقة الاولى ،
وبسamy لاجرلوف التي توفيت لثلاث سنوات خلت ، وهي
اعظم ادباء اسوج على الاطلاق وفي الطليعة من ادباء العالم
قاطبة . ولا نزاع في ان اقوى عناصر الادب الاسوجي الحديث
نما في القرية الاسوجية ذات الجذور الديموقراطية التي استمدت
ماويتها من تربة الديموقراطية الفرنسية . ويستطاع تمييز اتجاهين
في الادب الاسوجي المعاصر ، احدهما متحول نحو اليمين الاقصى
والآخر نحو الشمال الاقصى ، سوى ان روح التضامن يسود

هذين الاتجاهين . ولكن بين هذا وذاك مكان فسيح يقطنه
 بضعة من المنغزلين بينهم اكبر ادباء اسوج كالشاعر الخطير
 فيلهم اكيوند الذي تأثر باتباع الرومنطيقية الفرنسية في القرن
 الماضي ، والقاصة ماريكا ستيرنستد التي استهلت حياتها الادبية
 بقصص يغلب عليها نفوذ بول بورجه ، وهي من اصل بولوني
 وحفيدة الكونتس المشهورة هانسكا ، صديقة بازاك .

واذا انتقلنا من اوروبا الى سائر بقاع الارض نجد تأثير
 الادب الفرنسي كبيراً فيها . فآناطول فرانس مثلاً ما يزال الى
 اليوم نموذجاً للتكم وللذوق الادبي في نظر الشطر الاكبر من
 يكتبون في العالم الجديد . وما يقال عن تأثير فرانس يقال
 عن تأثير زولا وموباسان وبودليز واندره جيد وبروست وفلوير
 وبرغسن وغيرهم . فمن تلاميذ زولا القصصي آبن سنكر الذي
 استهل عهده الادبي باخراج صورة صادقة عن الحياة الاميركية ،
 عن حياة المدن والمتاجم والمصانع والشركات الكبرى وسواها
 من مظاهر النشاط الاميركي . ومن تلاميذ فلوير القصصي
 سنكر لويس الذي كان اول اديب نال جائزة نوبل ، فبطله
 قصته « الحادة الكبرى » اشبه ما تكون بـ « مدام بوفاري » .
 هذا في الولايات المتحدة ، اما في اميركا الجنوبية فالادب

الارجنتيني الذي لا يرجع عهده الى اكثر من قرن قد ولد في روائع الكاتب استيبان اشيفريا الذي مكث في اوروبا رداً من الزمن طويلاً وأشرب في روحه الثقافة الاوروبية والفرنسية منها بوجه خاص . على انه عرف ان يبقى لادبه طابعه الارجنتيني الصرف ، مما حمل الدكتور ريكاردو روخاس على القول بان الشجرة الفرنسية التي نقلت الى الارجنتين اعطت ثماراً تختلف كل الاختلاف عن الثمار التي كانت تعطيها في تربتها الاصلية . وينقسم ادباء الارجنتين الاحياء الى اثنين ، احدهما تأثر بالادب الفرنسي والآخر بالادب الروسي . فهجرة الاسرائيليين الروس والسلافيين الى الارجنتين حولت الانظار الى مؤلفات تولستوي وتورغنيف ودوستوفسكي وغوركي التي تروج ترجماتها اكثر من رواج الكتب الارجنتينية نفسها ، ولكن الادب الارجنتيني يميل بوجه عام الى التحرر ، وقد قال النقاد الارجنتيني خوان بابلو ايشاغي : « ان الادب الارجنتيني يتجه في الوقت الحاضر الى معاناة الاشياء الوطنية وتصويرها ، اي الى معاناة ما يقع تحت انظار الكتاب مباشرة . فقد بقي المؤلفون الارجنتينيون زمناً طويلاً يقلدون الاجني ولا سيما الفرنسي وينتحلون افكاره وصوره . اما اليوم فتراهم

يحدّون في طلب ما يقوم حولهم ، ويسعون لاجراج مناظرهم وعاداتهم واعتماد طرقهم في النظر والتفكير على اني لا اعتقد ان تأثير الادب الفرنسي في الادب الارجنتيني قد نقص من الوجهة الروحية . « ويرى ليوبولدو لوغونس ، وهو من اكبر ادباء الارجنتين ، ان هذه الاخيرة مشبعة بالثقافة اللاتينية وبالثقافة الفرنسية على الخصوص . وهي وان رأت في السنوات الاخيرة بضعة من ادبائها يبحثون عن نماذجهم في الادب الروسي او الانكلوسكسوني او السكandinافي الا ان تأثير الادب الفرنسي ما يزال بارزاً في مؤلفات كتّابها وشعرائها حتى الذين يتجهون منهم الى الادب القومي .

و لادب البرازيلي استمد عناصره الاولى من الادب الفرنسي ، فأدباء البرازيل عرفوا من فكتور هوغو ولامرتين وموسه ، وكان تقليد هؤلاء الشعراء الفرنسيين اساساً للادب البرازيلي . وفي الحقبة الاخيرة شوهدت امواج الرمزية الفرنسية على شواطئ ريو ده جانيرو . واذا كان في شعراء البرازيل من يتغنّى لليوم بالآلة وناطحة السحاب ، وصخب المدينة والمعمل ، وبالغابة العذراء ، فعلى ايّ قاع اشبه بايقاع بول كلوديل . واذا كانت في نقاد الادب البرازيلي من يميل الى تقليد « تين »

الذي كان استاذ الاستايطي والنقد الادبي في البرازيل آخر
القرن المنصرم ، ففهم من ميل الى رينان ويجزو حذوه .
ويمكن القول بان الاساتذة الفرنسيين لا يزالون غاذج النقد في
البرازيل . هذا الى ان مؤلفات الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت
لم تعالج تأثيرها في اي قطر من اقطار العالم كما عالجته في
البرازيل . وما لا شك فيه ان ثورة ١٨٨٩ التي قلبت
الامبراطورية واقامت الجمهورية يرجع الفضل فيها الى اشباع
اوغست كونت . سوى ان الادب البرازيلي لم يقطع الدليل
على مكانته في فن كما قطعه في الاقصوة والقصة . ففي العام
١٨٨٨ قدم جوليو ريبيرو قصته « الجسد » الى اميل زولا ،
وكانت هذه القصة مستهل عهد غني بالقصص الواقعية . وكثيراً
ما تكثر السخرية في مؤلفات الكتّاب الجدد الذين يأخذ
عليهم الشيوخ اهمالمهم اللغة العلمية . فأتقول فرانس بقي رديحاً
طويلاً من الزمن مثال القسم الاكبر من هؤلاء الكتّاب ،
ولا يزال الكثيرون الى اليوم يسمونه « أتاتول » .
وللتدليل على تأثر الادباء الترك بالادب الفرنسي نورد هذه
النادرة الطريفة :

في احدى الليالي ضم مجلس الغازي مصطفى كمال جماعة من

الاصدقاء والمقربين بينهم الشاعران التركيان النائبان يحيى كمال
وفاضل احمد .

وكان مصطفى كمال يحب الادب والشعر فتحول الى يحيى
كمال وسأله قائلاً :

— من هو اعظم قصصي في العالم ؟

فاجابه الشاعر التركي : بلزاك .

فقال الغازي : بلزاك ؟ ان بلزاك تيس ! ..

والتفت الى فاضل احمد وطرح عليه السؤال نفسه فأجاب :

بلزاك !

ووقعت عيناه على النائب قليج علي فقال : بلزاك !

وقليج علي من « القبضايات » المقربين الى الغازي ويكاد

لا يفهم من الادب شيئاً ، فقال الرئيس غاضباً :

— أمؤامرة علي !

قلنا في مستهل هذا الكلام ان جميع الحركات الشعبية او

الفكرية التي تمخضت بها اوروبا وآسيا انتهت حتماً الى فرنسا .

على ان العبقرية الفرنسية عرفت كيف تضبط هذه الحركات

وتخضع عليها طابعاً توجيهياً لا ذبوع لها بدونه ولا انتشار .

وبما لا تراع فيه ان الوضوح من المزايا الثمينة التي اتصف

بها الفكر الفرنسي ودفعت ادباء الارض الى الاقبال على فرنسا والاستقاء من معينها ، فمذ « انشودة رولان » الى الربع الاخير من القرن التاسع عشر بقي ادباء فرنسا ، كتابها وشعراؤها ، يحترمون تلك الحقيقة الابدية وهي ان الاديب لا يكتب الا ليفهم ، وان على الكاتب ان يكلف نفسه مشقة الافهام وليس على القارئ ان يكلف نفسه مشقة حل الرموز والاحاجي . فالادب كاللغة وسيلة من وسائل الاتصال بين الناس .

وان يكن الادب الفرنسي حال خلال الحقبة الاخيرة عن عهده في جانب كبير منه فما لبث ان عقب الى تقاليد الماثورة ، هذه التقاليد التي نشرت الآداب الفرنسية في الخافقين واشعلت في كل صعيد منارة للثقافة ستظل مضاءة ما بقي العالم . ففرنسا الادبية حية في كل ارض يستنشق فيها روح انساني ، وحياتها هذه كافية للقيام بجميع المهام الكبرى .

✓ الاتصال الاول بين العرب والفرنجية

انكر الدكتور برنارد لويس ، في كتيب صدر اخيراً عن « تاريخ اهتمام الانكليز بالعلوم العربية » ، على جمهرة العلماء اعتقادهم مدة طويلة من الزمن ان اول اتصال هام بين الثقافة العربية وثقافة الفرنجة كان نتيجة الحروب الصليبية . قال : « وفي الحقيقة ان الحروب الصليبية كانت الفرصة الاولى التي سمحت بالاتصال الوثيق بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . ولا شك في انه حدث اذ ذاك تبادل ثقافي بين الفريقين . غير ان البحوث التاريخية الحديثة اثبتت ان هذا التبادل الثقافي كان محدود المدى والاثر ، وان وصول حركة الفكر والعلوم العربية الى الغرب كان عن طريق آخر . فبعد ان فتح العرب شمالي افريقيا ساروا بانتصاراتهم الى اوربا واستعمروا اقليمين هامين في منطقة البحر الابيض المتوسط مدة طويلة . فقد اسس

العرب في اسبانيا وصقلية مدنية زاهرة ارقى كثيراً من اية
مدينة معاصرة لها في ذلك الوقت في البلاد المسيحية ، وهي
المدنية التي خلفت آثاراً في المدن المسيحية المعاصرة لها . حتى
انه بعد ان استعاد المسيحيون سيادتهم على تلك البلاد ظلت
العلوم العربية مزدهرة مدة من الزمن . وكانت من الملوك
المسيحيين من يتكلم العربية ويؤازر علماء العرب . وقد شرعت
الثقافة العليا للعرب تنفذ الى بلاد الفرنجة منذ عهد مبكر اذ
كان المسيحيون الذين يتكلمون العربية من اهل اسبانيا يتمتعون
بنفوذ قوي . . . »

وربما قصد الدكتور برنارد لويس بقوله ان التبادل الثقافي
الذي حصل بين الشرق والغرب من جراء الحروب الصليبية
كان « محدود المدى والاثر » ان هذا التبادل الثقافي انحصر في
الجانب الاكبر منه بين الشرق وقسم محدود من الغرب .
والواقع ان الحركة الصليبية نشأت في فرنسا ونمت ثم تدفقت
وطفت على حدودها ، وان هذه الحركة اكسبت فرنسا دون
سواها مستعمرة واسعة النطاق شملت الساحل الشرقي من البحر
الايض المتوسط وعاشت ما يقرب من مئتي سنة ، اي الى
سقوط عكا ، آخر موقع بقي للصليبيين في الشرق . سوى

ان نفوذ فرنسا الادبي عاش على كثر الزمن ولم تحب له شعلة
في اي عصر .

ولكن ان يكن الفرنسيون قد حققوا هنا اعمالا مجيدة اذ
اسبغوا على البلاد نعمة الرفاهية والحض و مهروها بأنظمة عادلة
نوه بها جميع المؤرخين العرب ، فقد استفادت فرنسا هي كذلك
من الاتصال الوثيق بينها وبين الشرقيين ، ذلك ان التبادل
الفكري رافق التبادل التجاري بين الفريقين ، واذا بالشرق
ينفذ الى فرنسا بمعارف اطبائه وشارعيه وفلاسفته ورياضيه
وفلكيه وبأشغاله الحربية الدقيقة واسلحته الدمشقية وسائر
فنونه .

ولولا الحركة الصليبية التي مشى على رأسها ملوك فرنسا
وقوادها ومحاربوها ومقادستها لما كان القرن الثالث عشر العصر
الذهبي لمملكة فرنسا ، ولما كان لهذه الاخيرة مؤرخوها العظام
كأرنول Ernoul وفيلهردين Villehardouin وجوانفيل
Joinville ، ولما قدر لشعرائها ان ينشدوا تلك الملاحم الخالدة
في مآثر ابطالها ، ولما اتيج لاساتنة جامعاتها المشهورة التي
كانت تجذب اليها طلاب اوربا بأسرها ان يملكوا معارف
على جانب كبير من الاتساع ، ولما انتشرت فنونها من

بورغوس الى اسكاندينافيا ، ومن براغ الى قبرص والى سوريا ،
ولما اوتيت اخيراً ذلك النفوذ العجيب الذي كانت تفرضه
على العالم .

ومعلوم ان المدينة التي انشأها العرب في اسبانيا وانتشرت
في سائر بقاع اوروبا ما لبثت ان زالت بزوال العرب ، لان الذين
قدروا على اخراج العرب من اسبانيا ثابروا هم وخلفاؤهم على
السعي لاجراج الحضارة العربية ايضاً . وقد يكون ذلك لسوء
حظ اوروبا . اما المدينة التي نشأت من التقاليد الصليبية في
الشرق فقد نمت وامتدت عروقها وطوت القرون الى ايامنا هذه .

لعدة قرون خلت بدأ الاوروبي يؤمن بسلطة العقل ، وقد
تعلم ذلك من العرب الذين وضعوا العقل فوق السلطة وقالوا
بوجوب استخدامه حكماً عالياً في الفصل بين الحق والباطل .
ولكن خروج الحضارة العربية من اوروبا ابقى الباطل في الجزء
الاكبر من اوروبا ، حتى في عهد الانبعاث . فالبورجوازية من
جهة والريف من جهة اخرى بقيا متشبثين في مقاومة ثقافة من
شأنها قلب القواعد القائمة بطناً لظهر . فالعقل يبطل الخرافات
والعالم يطفح بها ، فكيف يمكن التوفيق بين العقل الذي
ينفي العجائب والعجائب التي ترى في كل مكان ؟ ففي العالم

١٥٠٠ شوهد في سماء الالزاس بقرب مافرن « رأس ثور تلمع بين قرنيه نجمة كبيرة ». وفي السنة نفسها شوهد في سماء لوسرن بسويسرا « تين من النار يطير الى جهة الشرق ». وبعد ثلاث سنوات ، اي في العام ١٥٠٣ ، ظهر في قرية ويلسوك من دوقية بافاريا تين عظيم يلفظ نيواناً من حلقه . وفي السنة نفسها ظهرت النجوم متلاثة في رانعة النهار بمدينة ميلانو . وفي الساعة الثامنة صباحاً من احد ايام كانون الثاني ١٥١٤ رؤيت ثلاث شمس تلمع معاً في سماء دوقية ويتامبرغ ، وكانت كل منها في شكل سيف طويل يقطر دماً . وفي ١٧ من شهر آذار من السنة نفسها رؤيت ثلاث شمس في النهار وثلاثة اقمار في الليل .

وفي العام ١٥٢٠ سمع بوجوازيو ويسمبرغ على الرين ضجيج معركة هائلة في السماء . وفي السنة نفسها حين توج كارلوس الخامس ، امبراطور المانيا ، شوهدت الشمس محاطة بحلقة كبيرة ، ثم تدلت من هذه الحلقة شريطة نارية فلامست الارض وحدثت فيها اضراراً جسيمة وعادت الى الجو . وفي العام ١٥٢٣ شاهد احد الفلاحين المجريين ليلا اميرين يتبارزان في الجو ، وكان اكبرهما سناً يحمل تاجاً على رأسه ، فقتله خصمه

ورمى تاجه على الارض . وفي العام ١٥٣٦ رؤي في سماء اسبانيا رجلان مسلحان يتقاتلان ، وكان احدهما يحمل على ذراعه اليمنى عصاة عليها نسر وحول النسر هذه الكلمة : « سأملك ! » وكان على الآخر درع عليها نجمة وهلال وهاتان الكلمتان : « لقد ملكت . » وقد اسفر الصراع عن مقتل صاحب الدرع . وفي العام ١٥٤٧ شوهد في الساكس تابوت يمشي في السماء مغطى بكفن اسود ووراءه جموع حزينة .

هذا فضلاً عن الدماء التي كانت تهطل من السماء فترسم كل نقطة منها صلياً على الثياب ، وعن البهائم التي كانت تتكلم ، والحيوانات العجيبة التي تشبه جليان يوحنا (الابوكاليس) .

ومثل هذه العجائب او الخرافات كان كثيراً في اوروبا في تلك الازمنة الخارجة من ظلمة القرون الوسطى .

ومعلوم ان النجوم كانت تمثل دوراً كبيراً في خرافات تلك الازمنة . فالاوروبيون كانوا يعتقدون - وقد اخذوا ذلك عن العرب - ان بين كواكب السماء ومصابر الناس صلة حميمة فلا يكاد يولد طفل حتى يؤخذ برجه لمعرفة ما سيكون مصيره . وكان الملوك والامراء والعظماء يستشيرون الكواكب قبل

الاقدام على اي امر . وكان ثمة مثل سائر يقول : « كَلَّ
في واحد وواحد في كل . » ومن هذا المثل أخذت سَنَّة
القياس . فالكل هو العالم بأسره والانسان الواحد هو الكل .
فالكون هو في الانسان كالانسان في الكون . فما يرى مصغراً
في المرء يكون مكبراً في العالم اجمع .

وبديهي ان هذا المبدأ أخذ من الفلسفة اليونانية التي نقلها
الغرب ، وقد قال ابو نؤاس :

✓ أترعم انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وعلى هذا المبدأ قسم كل شيء الى ثلاثة : روحي وادي
ومادي . فالروحي في الانسان هو الرأس ، والادي هو
القلب ، والمادي هو البطن . والروحي في الكون هو السماء ،
والادي هو الارض ، والمادي هو الماء . وهذا كله من الاتصال
بحيث لا يكاد يولد الطفل حتى تطابق حالته حالة الطبيعة
بأسرها في الوقت الذي تمت فيه الولادة .

قلت ان زوال الحضارة العربية كانت شؤماً على اسبانيا
واوروبا ، فلاندلس لم تعرف السعادة الا في ظل الامراء
العرب ، وحالما ذهب العرب حل الدمار محل الثراء والجمال
والخصب ، ذلك ان الملوك المسيحيين الذين خلفوا ملوك العرب

كانوا على جانب كبير من المهارة السياسية ولكنهم لم يضارعوا مهارة العرب في الادارة والتنظيم .

على ان اليد البيضاء التي اسبغها العرب على اسبانيا لا ينبغي ان تعمي ابصارنا وتحدرننا الى دركة التعصب فلا نرى للاسبان فضلاً في بلادهم . فالى جانب الحضارة العربية التي كانت تنمو في جنوبي اسبانيا كانت الحضارة الاسبانية تنظم في المقاطعات المستردة ، وكان لكلتا الحضارتين اثرها العميق في الاخرى . فالعرب والاسبان لم يكونوا في حالة حرب مستمرة ، بل كان ثمة فترات طويلة من التهادن بل من السلام كان الشعبان يتمازجان خلالها ويختلطان ، والعلايق يحتك بعضها ببعض ، وكان شعراء الاسبان يحلون في بلاط الخلفاء كما كان المغنون العرب وشعراؤهم يحلون مكرمين في قصور الملوك الاسبان . وصفوة القول ان اقامة العرب الطويلة باسبانيا اشبه ما تكون بطغيان نهر كبير غمر الحقول بمائه وطينه ، ولكن النبات الذي استمد الحصب من هذا الطين وذلك الماء متأصل في الارض من زمن طويل .

وبما لا نزاع فيه ان الاتصال الفكري بين الشرق والغرب في زمن الصليبيين كان اوثق منه في زمن الغزوة العربية

لايبانيا ، ففي زمن هذه الغزوة كان الاتصال ضعيفاً بين الشرق
والغرب بداعي الطلاق الذي حصل بين عرب الشرق وعرب
الغرب .



شارل مارتيل

ففي مطلع القرن الثامن هاجم القائد العربي العظيم طارق
ابن زياد اسبانيا بعد ان استولى على سوريا ومصر وطرابلس

الغرب والقيروان وتونس والجزائر ومراكش . وما كاد العرب يستولون على قسم كبير من فرنسا حتى اهوى عليهم شارل مارتيل واوقفهم في بواتيه . ومنذ ذلك الحين اخذ العرب يتراجعون عن اوروبا ولكنهم كانوا قد بنوا ملكاً عظيماً في اسبانيا بقي لهم الى اواخر القرن الخامس عشر .

في ذلك الحين كان الخليفة العربي يملئ شرائعه على نصف العالم ، على آسيا وافريقيا واسبانيا . ولكن في العام ٧٥٠ شبت الثورة في دمشق ، وأعلنت السلالة العباسية بعد الفتك بالامراء الامويين . ولما نقل العباسيون حاضرة ملكهم من دمشق الى بغداد خضع لهم جميع العرب عدا اسبانيا الاموية ، فقد شقت عصا الطاعة للخليفة العباسي واعلنت استقلالها في قرطبة .

وبقيت القطيعة بين عرب الشرق وعرب الغرب قروناً عديدة . وفي خلال هذه الحقبة صار الادب العربي الى الانحطاط في الشرق من جراء التدهور السياسي والاقتصادي فيه ، على حين كانت في اوجه في الغرب ، ومن قرطبة وفلورنسا انتشر الخيال العربي في سائر بلاد اوروبا . وقد بقيت قرطبة مركز الثقافة في العالم الى القرن الخامس عشر .

و**بجمل القول ان حضارة العرب في اسبانيا لم تفقد الشرق**
مقدار ما افادت الغرب ، لان الاتصال الثقافي بين الجانبين
بقي ضعيفاً حتى القرن الحادي عشر ، اي حتى قيام الحملة
الصليبية . فلما توطد سلطان الفرنجة في الشرق وسهلت طرق
الاتصال بين الشرق والغرب نشطت حركة التبادل الثقافي
بين الطرفين وكان لاسبانيا العربية شأنها في هذه الحركة .



السلطان صلاح الدين

وفي اواخر القرن الثاني عشر ، اي في العام ١١٨٧ ، **عندما**
اخرج صلاح الدين الايوبي الصليبيين من فلسطين استولى الملك
الفرنسي غي ده لوزينيان Guy de Lusignan على جزير

قبرص وعمل منها مستعمرة فرنسية ازدهرت فيها الفنون والآداب الفرنسية مطلة بأعراف الشرق ، وسرعان ما أصبحت قبرص صلة الوصل الوحيدة بين الشرق والغرب .

وقد بقيت حركة النشاط في قبرص الى العام ١٣٧٢ ، اي الى الوقت الذي اقدمت فيه جمهورية جنوى على انتزاع هذه الجزيرة من اسرة ده لوزينيان . وفي العام ١٤٦٤ طرد جاك الثاني ، وهو من اسرة ده لوزينيان ، الجنويين من الجزيرة ، ولم يعم الامر ان اقترن جاك الثاني بكاترين كورنارو الايطالية ، وفي العام ١٤٨٩ تنازلت هذه الاخيرة للجمهورية البندقية . سوى ان التقاليد بقيت فرنسية في قبرص .

وكما استولى الفرنسيون على قبرص استولوا على جزيرة رودس مدة قرنين ، وحكموا جزيرة مالطة الى العام ١٧٩٨ . وهكذا بقيت فرنسا طوال قرون عديدة حامية الحضارة الغربية في الشرق . وقد قال احد المؤرخين : « ان فرنسا هي الفرن الذي يخبز فيه خبز الانسانية الثقافي . »

• في منابع الثقافة الفرنسية

كان اهتمام فرنسا بشؤون الشرق كبيراً في عهد الانبعاث .
ففي العام ١٥٨٧ انشئ منبر للدروس العربية في « كوليج
ده فرانس » ، فكان هذا المعهد اول مؤسسة اوروبية فكرت في
تدريس اللسان العربي . ومعلوم ان جامعة كمبردج لم تبدأ
بتدريس اللغة العربية الا في العام ١٦٣٢ .

بعد وفاة الامبراطور الروماني ثيودوشيوس الاول الملقب
بالكبير غرق العالم الاوروي في ظلمة العصور ، ثم خرج منها
على حين فجأة ، خرج من الحقبة الطويلة التي سماها العلماء
فيما بعد ظلمات القرون الوسطى . وكانت الآلام والتجارب
والمصائب نفسها كأنها مطهر يؤدي الى حياة ابدية سعيدة ،
ولكن عودة فجائية الى القديم ايقظت العالم الاوروي الى
الحقيقة فأدرك ان الحياة الارضية من الخيرات التي يحسب

احتقارها امتهاً للطبيعة ومسبة لها ، واصبحت الفلسفة اقرب الى
الانسانية ، وشرع الناس يتذوقون الحياة من جديد بعد ان
لبثوا عهداً طويلاً يعتقدون انها ليست سوى طريق مخوف
بالمصائب والآلام .



فرنسيس الاول

وكان ان انشا فرنسيس
الاول مؤسسة « كوليج
ده فرانس » فكانت اول
مشعل مزق ما بقي من
ظلمات القرون الوسطى
وقضى قضاء مبرماً على
الغباوة والجهل . ولم
تقتصر هذه المؤسسة على
تدريس اللغات اليونانية
واللاتينية والعبرية بل
عكفت على جميع المعارف

كالرياضيات والفلسفة والطب والجغرافيا وعلى كل ما يفتح
القلب وينير العقل .

حالمًا افتتح محمد الثاني مدينة القسطنطينية في العام ١٤٥٣ هـ
 هرب عدد كبير من علماء اليونان الى ايطاليا حاملاً معه روائع
 المؤلفين اليونانيين القدماء ، وكانت هذه الروائع لا تزال مجهولة ،
 ونزل ضيفاً على البابا يوليوس الثاني وآل مدسيس .

وكان فرنسيس الاول يفكر في احياء الآداب والعلوم
 والاخذ بيد الكتّاب والموسيقين والمصورين ، فما كاد يعقد
 معاهدة كامبري مع شرلكان ، امبراطور النمسا ، (وقد
 سميت هذه المعاهدة بـ « صلح السيدتين » اذ فاوضت فيها
 لويز ده سافوى باسم فرنسيس الاول ، ومرغريت دوتريش باسم
 شرلكان ، حتى عهد الى بناء مؤسسة كبرى تجمع كنوز
 روما واثينا والشرق ، ودعا الى بلاطه كبار المصورين الطليان
 كده فنتشي وبنفيتو شليني وغيرها ، واشترى روائع الصور
 الزيتية والكتب النفيسة والمخطوطات . وهذه المؤسسة التي
 لقبت بـ « هيكل المعارف البشرية » لا تزال اعظم المؤسسات
 العالمية على الاطلاق اذ ليس في العالم نظام تدريسي باتساع
 نظامها الذي يشمل على تدريس اللغات والآداب اليونانية
 واللاتينية والعربية والعبرية والكلدانية والسريانية والفارسية
 والتركية والسنسكريتية والصينية والمنشورية والسلافية وغيرها ،

وعلى تدريس التاريخ والسلوك والمنطق والحقوق والاقتصاد
السياسي وطبقات الارض والرياضيات والفيزياء والكيمياء
والفلك وغيرها .

وما انتصف القرن السابع عشر حتى بدأت الاهداف
السياسية تشرف على ادارة الدروس الشرقية في « كوليج
ده فرانس » ، وكان مندوبو الملك في الشرق يعدّون العدة
لهذه الدروس فيجمعون المخطوطات والوثائق التي استند اليها
المستشرق برتلمي دربلو (١٦٢٥ - ١٦٩٥) في وضع قاموسه
المعروف بالمكتبة الشرقية ، وكان انطوان غالان Antoine
Galland الذي نقل الف ليلة وليلة الى اللغة الفرنسية من
مندوبي الملك في الشرق . وقد فتح الفوز الذي ادرّكه
الف ليلة وليلة عهد الاقبال على تأليف القصص الشرقية في
القرن الثامن عشر .

وكما ان العرب خلقوا بـ « الف ليلة وليلة » فن القصة
واخذها عنهم الاوروبيون هكذا خلقوا بـ « أهل الكهف » فن
الاسطورة واخذها عنهم الاوروبيون ايضاً . ومن اين استوحى
شارل بيرو حكاية « الحسناء الراقدة في الغاب » La Belle
au Bois Dormant ان لم يكن من « أهل الكهف » الذين
روابط الفكر والروح

رقدوا في كهفهم ثلاثاً وسبعين سنة ؟

تلخص أسطورة « الحسناء الراقدة في الغاب » في ان
جنبة تدعى كارابوس لم تدع الى حفلة عماد احدى الاميرات
فغضبت ودعت على الاميرة بان ترقد مئة سنة كاملة . ولما
استفاقت هذه الاخيرة من رقدتها المثوية زفت الى امير ساحر
ورزقت منه طفلاً وطفلة سمي الاول النهار والاخيرة الفجر ،
وعاشت سعيدة بالرغم من حماها الشريرة .

أما « اهل الكهف » فسبعة فتية من اشراف الروم
أرادهم ملكهم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا الى كهف فقالوا :
ربنا آتنا من لدنك رحمة وهي لنا من امرنا رشداً .
ولبثوا في الكهف راقدين ثلاثاً وسبعين سنة . وحكي ان
الذي بعث منهم الى السوق لشري طعاماً اخرج الدراهم وكان
عليها اسم دقيانوس فاتهم بانه وجد كنزاً لبعد عهد الملك
دقيانوس . ولما جيء به الى الملك قال بعضهم : ان آباءنا اخبرونا
بان فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلمهم هؤلاء . فانطلق
الملك واهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكمومهم . ثم قال
الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والانس .
ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبني

عليهم مسجداً .

سوى ان ثمة حقيقة لا بد من تسجيلها وهي ان الاوروبيين

كانوا أحذق منا في ترتيب هذه الاساطير والقصص . ففي

ذلك الزمان لم يكن الخيال العربي منظماً فأخذ الفرنجة هذا الخيال

ونظموه بعد ان رحبوا نطاقه ووسعوا اجواءه . وكان

الاوروبيون احذق منا ايضاً في اخراج قصصنا وحكاياتنا بجل

غريبة من الكنايات والرموز . فالحسناء الراقدة في حكاية

بيرو هي الارض في رقدة الشتاء الطويلة ، والامير الساحر هو

الشمس اقبل ليوقظها ، ولذلك سمي طفلاهما النهار والفجر . اما

والدة الامير الساحر ، تلك الوالدة الشريرة ، فهي الليل يقبل

لافتراس الفجر والنهار .

على ان الاسراف في الكنايات والرموز يسيء احياناً الى

تفسير الاساطير البشرية القديمة . فالاسطورة يجب ان لا تخرج

من نطاقها السحري ، فوظيفتها هي ان تصرفنا من هذا العالم الى

عالم خيالي يوائم احلامنا لا ان تعيدنا برموزها وكناياتها الى

الجو الذي افلتنا منه .

وقد يكون فولتير ابرع كذاب القرن الثامن عشر في تأليف

القصص الشرقية ، وفي جملة ما صنعه في هذا الفن حكايات

« صادق » Zadig و « ساذج » Candide و « ملكة بابل »
 و « ميكروميفاس » وغيرها . اما « ميكروميفاس » فلم
 يوناني مؤلف من كلمتين : ميكرو اي صغير ، وميفاس اي



فولتير

كبير . ويقول تاريخ الادب ان فولتير قلد في قصته هذه
 احدى قصص الكاتب الانكليزي سويفت ، وقد جمعها هذا
 الاخير في كتاب سماه « رحلة غوليفير » . فاذا كان صحيحاً

ان فوثير قلد سويقت فليس صحيحاً ان سويقت ابتدع بدعة
كما يدعي تاريخ الادب .

وبما لا شك فيه ان احد الاثنين اطلع على كتاب
الاساطير العربية وفيه قصة « عوج بن عناق » التي لا تشبهها
قصة كما تشبهها قصة ميكروميغاس . وليس وجه الشبه بين
« عوج بن عناق » و « ميكروميغاس » مثله بين « رسالة
الغفران » و « المهزلة الالهية » . فاذا كان الشاعر الفلورنتيني
دنتي نسخ خطة « المهزلة الالهية » عن « رسالة الغفران » واستعان
بالشاعر اللاتيني فرجيل في طوافه مناطق العقاب والثواب كما
استعان الشاعر العربي بابل القارح في طوافه حلقات النعيم
والجحيم ، فالكاتب الفرنسي العظيم تجاوز ذلك في قصته التي
تحكم فيها على خصمه ده فوتتيل الى نسخه ليس خطة « عوج
ابن عناق » فحسب بل الافكار التصويرية التي بنى عليها القصص
العربي قصته هذه ، ولم يأت من عنده بسوى الحواطر الفلسفية
التكمية التي هاجم بها خصمه ده فوتتيل .

وبما ان قصة « عوج بن عناق » طويلة جداً فنستخلص بعض
صورها لاثبات الشبه العظيم بينها وبين قصة « ميكروميغاس » .
يقول القصص العري أن « عوج بن عناق » مارد من

سكان الكواكب هبط الى الارض يرافقه احد الاقزام من
نجمائه . ويصف هذا المارد الجبار فيقول ان المسافة التي بين
كفيه ثلاثة فراسخ ، وبين انفه وعينه نصف فرسخ ، وطول
يده اربعة فراسخ ونصف فرسخ ، وانه يمر بالاوقيانوس فتكاد
رجله لا تشعر بالوطوبة . واذا جاع تناول بضعة خبثات
وشواها على القمر في الليل وعلى الشمس في النهار .

ومما يذكر عن « عوج بن عناق » انه كان يقبل ظهيرة
يوم فتشعر بتميل في رجله ازعجه ، وفيما هو يحاول نفخ
الهوام عنها مرت قافلة فطلب من رجالها ان يطردوا الحشرات
المعششة بين اصابع رجله حالما يصلون الى هناك . ولما وصل
رجال القافلة بعد مسيرة طويلة الى رجلي المارد شاهدوا قطعاناً
من السباع ، من الاسود والنمور والفيلة ، ترعى في مطاوي
اصابعه وعلى اظافيرها .

واليكم كيف يصف فولتير عملاقه ميكروميغاس . يقول
الكاتب ان طول ميكروميغاس ثمانية فراسخ اي اربعة
وعشرون الف قدم . فعندما يبلغ هذا الفتى اربعمئة وخمسين
عاماً من عمره ، اي حين يوشك ان يخرج من عتبة الطفولة
الى الشباب ، ينصرف الى تشريح حشرات صغيرة لا تتجاوز

مئة قدم وتكاد لا ترى بالميكروسكوب العادي ، ويؤلف عنها كتاباً مدهشاً يذيع صيته . على ان حاكم الشعري اليابانية التي ولد فيها ميكروميغاس يرى في الكتاب ما يدعو الى الشبهة فيأمر بحاكمته بمادة الاحاد لان الكاتب بحث في هن ثمة اتفاق بين طبيعة البراغيث في الشعري اليابانية وطبيعة الحلزون ؟ وتستمر الدعوى مئتين وعشرين عاماً يدافع خلالها الكاتب عن نفسه بمساعدة النساء وتفسر النتيجة عن فوز الحاكم بمعاوضة رهط من العلماء الذين لم يقرأوا الكتاب وعن نفي مؤلفه مدة ثمانية قرون .

ولكن ميكروميغاس لا يأسف لنفسه بل ينظم انشودة يتهم بها على الحاكم ويتنقل من كوكب الى كوكب كالعصفور من غصن الى غصن ، فيجتاز المجرة بوقت قصير ويتهيأ به السير الى زحل الذي يسكنه اقزام لا يتجاوز طول الواحد منهم ستة الاف قدم . ولا يكاد يهزأ هؤلاء الاقزام حتى يرتد الى رشده ويدرك ان العقل لا يقاس بمقياس الطول والعرض وان قزماً لا يتجاوز طوله ستة آلاف قدم قد يكون على جانب من الذكاء عظيم ، فيسعى الى التقرب من الزحلين ويتعرف الى كاتم اسرار المجمع العلمي الزحلي ،

وهو رجل واسع المعارف لم يخترع شيئاً في حياته ولكنه يعطي آراء صائبة في مخترعات الآخرين ، وينظم بعض مقاطع شعرية ، فيأنس به ، ويرتبط معه بعري صداقة مينة . وبعد مباحثات تدوم ثلاثين عاماً يقرران القيام برحلة فلسفية .

واذ الفيلسوفان على أهبة السفر في اجواء زحل تسرع حبيبة الزحلي دامعة المقلتين ككثيرة القلب وتوجه على عمله السيء ، وهي فتاة تكاد لا تبلغ ثلاثة الاف وتسعمئة وخمسين عاماً من عمرها ، فتقول له : « يا ظالم ، اتهجري بعد ان حافظت على حبك الفأ وخمسة سنة وارتقت بين ذراعيك قرناً كاملاً لتقوم برحلة لا اعرف لها سبباً مع جبار هائل جاء من عالم غير هذا ؟ اذهب فما انت الا خائن ناكث العهد لا حب في صدرك ولا وفاء . اذهب فلا خير في الرجال وليس اسخف من امرأة تحب رجلاً . » فلا يتردد الفيلسوف ان يطوقها بذراعيه ويبكي معها برهة . ولكن الفتاة حين تشعر بان لا بد من هجرها تذهب فتعزي نفسها بين ذراعي سواه .

ويسافر الفيلسوفان فيقفزان من قمر الى قمر ، واذا يقطعان مسافة مئة وخمسين مليون فرسخ يصادفان المشتري فيمكنان فيه عاماً كاملاً يكشفان خلاله اسراراً غريبة كانت ولا ريب

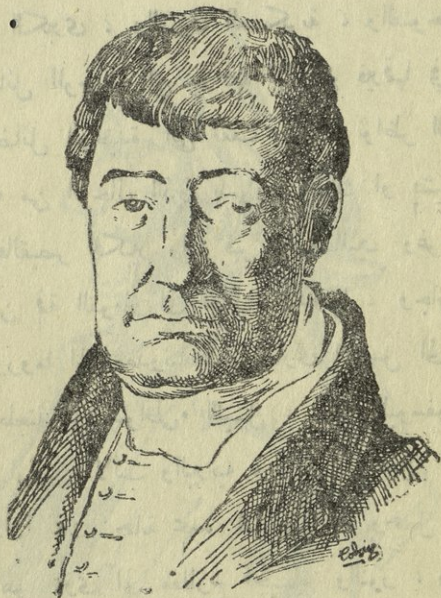
تحت الطبع لولا قلم المراقبة الذي رأى فيها بعض مسائل غير
 صريحة . ثم يتوجهان الى المريخ بعد اجتياز مئة مليون
 فرسخ ، فيجدان فيه قمرين لم يتوصل الى اكتشافهما العلماء
 الفلكيون ، ولكنها مخشيان ان لا يتوافر لهما فيه محل للتوهم
 لصغر محيطه فيمران به كما يمر المسافر بجحاة قنرة . واذ
 يقطعان مسافة طويلة يترأى لهما شعاع ضئيل ينبثق من الابعاد .
 كان هذا الشعاع كرة الارض الصغيرة . ويستمران في السير
 فيعبران مذبذب هالي ، ويشخصان الى الامام فيبصران الفجر
 فيركبانه الى ان يبلغا الشاطئ الشمالي من المحيط البلطقي .

وبعد ان يستريحا قليلا ويأكلا جيلين كاملين يشوقهما ان
 يعرفا في اي بلد هما فيتوجهان اولاً من الشمال الى الجنوب ،
 وكانت خطوة ميكروميغاس تبلغ ثلاثين الف قدم او اكثر .
 اما القزمة الزحلي الذي لم يكن له من الطول سوى ستة
 آلاف قدم فكان يركض خلف الجبار بتعب شديد . وبعد
 مسيرة خطوات قليلة يصلان الى ذلك المستنقع المعروف بالبحر
 الابيض المتوسط بعد ان يعبرا الغدير الصغير المعروف
 بالافيانوس فلا تغمر المياه سوى النصف الاول من ساق
 القزمة . اما ميكروميغاس فلا يكاد يتبلل عقب حدائه .

وفي هذه الآونة ينقطع عقد الماس على صدر العماق وتنفرد
 الجواهر واكبرها ترن مئتي الف غرام فيستعملان اثنتين منها
 ميكروسكوباً . وبعد جهد يتمكن الزحلي من رؤية شيء
 دقيق يتحرك بين موجتين . كان هذا الشيء حوتا فيأخذه
 ينصره ويضعه على ظهر ابهامه ويعرضه على ميكروميغاس .
 ويواصل فولتير قصته ليخلص الى النتيجة الفلسفية متبهما
 على خصمه ده فونتيل . ولكن ما يهمنا من هذه القصة هو
 تسليق فولتير على الخيال العربي في الوصول الى مرماه الادبي .
 ونستأنف بحثنا فنقول انه كان للمكتبة الملكية مندوبون في
 الشرق ، وهؤلاء المندوبون هم الذين هيأوا عهد الاستشراق
 الفرنسي في زمن حملة مصر وفي مفتتح القرن التاسع عشر
 تحت اشراف العالم الكبير سيلفستر ده ساسي (١٧٥٨ -
 ١٨٣٨) ، فقد بقي هذا العالم ثلاثين سنة يبحث على
 تنشيط الدروس العربية في اوربا حتى ليستطاع القول بكل
 تأكيد ان اساتذة الاستشراق الالمان الاول كانوا من
 تلامذة ده ساسي .

ففي حين كانت الكتب العربية المطبوعة نادرة كان
 ده ساسي منصرفاً الى جمع مختارات من الادب العربي شعراً

ونثراً . وفي ترجمة هذه المختارات وشرحها دليل ناصع على علو
كعب هذا المستشرق الذي اصدر طبعة ممتازة لمقامات الحريري
مع تفسير ضاف لها . وكان ده ساسي قد نوّه في مختاراته



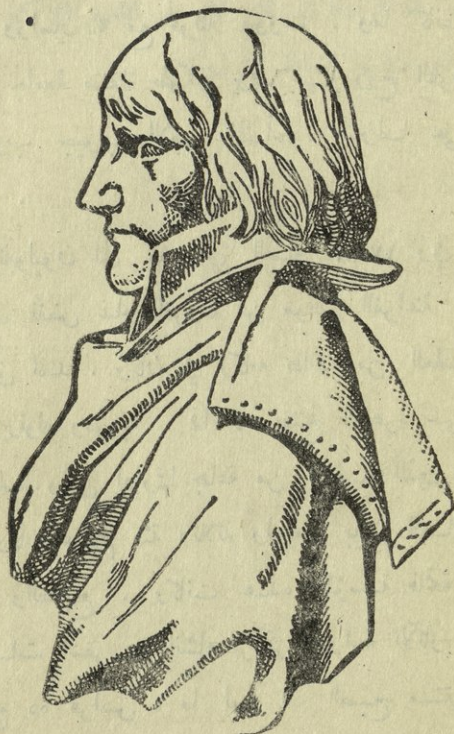
سيلفستر ده ساسي

باهية ابن خلدون وسواه من المؤرخين العرب ، فطذا العلماء
الاوروبيون حذوه بان اكبوا على دراسة هؤلاء المؤرخين قبل
ان يقبل عليها الشرقيون انفسهم .

ولا نزاع في ان اتصال الفرنسيين اتصالاً مباشراً بالبلاد العربية بدأ منذ احتلال جيش نابوليون لمصر ، بعد ان سر على انقطاع الفرنج عن العرب قرون عديدة . والواقع ان الانتصارات الكبرى ، والفنون العسكرية ، والفتوحات الغراء ليست بالفضائل الوحيدة التي يترسمها التاريخ فيرقها في مطاويه ، وليست بالفضائل الوحيدة التي تقف عليها نواظر الشعوب في حياة العظماء من الرجال الذين يدسون الممالك او يشيدونها بقوة السيف . فالقيصر الكبير وان قهر الجرمانين وغرس النصور الرومانية من قمة القوقاز الى جبال كليدونيا ، وجاز غاليا الى ايطاليا ، وروما الى مقدونيا ، وصحارى الفرس الى افريقيا ، واطلال قرطجة الى شواطئ النيل ، وعبر البوسفور والرين وجبال طارق والالب والبيرنيه ، الا انه سير اعم روما ولقتها وعاداتها تحت حماية مجده الشخصي ، وحمل معه عصر اغسطس وهو يتزى الى مطارح الحياة والنور ، وبني اعظم وحدة سياسية عرفتها الارض .

ولكن الدهر لم يقيض لاحد من بين جميع الفاتحين ان يتناول من اسباب الحظ والسلطان ما تناوله نابوليون الكبير . فان يكن الاسكندر قد فتح في الحرب فتحاً امكته من

عصر بركليس فرفعه الى مذاهب الجوزاء كما حمل القيصر عصر
اغسطس ، وان يكن هذان الفاتحان قد استمدا عبقرية
هوميروس وسوفوكليس وافلاطون واريستو وشيشرون وفرجيل



نابوليون

وهوراس ، فان نابوليون حمل معه ثلاثة عصور فسخ لها الله

في الفن والعلم والفلسفة ، وما كان عصره اقل انطلاقا في ميدان العبقريّة الفكرية من عصر من تقدمه من الفاتحين : فقد اجتاز اوروبا الى الشرق مع موتين وديكارت ، مع كورناتي ورأسين ، مع فولتير وروسو . وما كانت اركان حربه الا جامعة متنقلة طوّاقة يرف فيها روح القرن الثامن عشر وتجنّب جيوب الامم المتأخرة لتنزّلها على تقاليدھا وانوارھا .

جاء نابوليون الى مصر في العام ١٧٩٨ وفي نفسه من الشوق الى نفض غبار القرون عن موطن القراعنة ما فيها الى فتح طريق الهند . وكان في ركابه طائفة من العلماء الاعلام كمونج وبرتوله وفوريه . فما كاد يفتح القاهرة حتى انشأ فيها مؤسسة علمية ولّى ادارتها جماعة من العلماء الذين رافقوه في حملته ، وكان عددهم مئة وثلاثة واربعين بينهم العالم والاديب والفنان والطابع . وكانت هذه المؤسسة فاتحة عهد غني بالاكتشافات اسفر عن انشاء مركز لدراسة الآثار المصرية في « كوليج ده فرانس » ما لبث ان اصبح مستقر العلايق الودية بين علماء فرنسا وزملائهم في البلدان الاخرى .

وان يكن بونابرت قد فشل في فتح سوريا فقد تولى هذا

الفتح مكانه اعلام الفرنسيين من رجال الادب والعلم ، فمن
 ذلك الاحتكاك الجديد بين الشرق والغرب نشأ في نفوس ادباء
 فرنسا وشعرائها شوق ملحّ الى زيارة الشرق ، وعلى اثره
 نشطت حركة الرسائل التي كان لها الفضل الاكبر في تحويل
 الشرقيين الى منابع الثقافة الفرنسية .

فأمر الشريفين بمباراة الثورة

ومنذ ذلك الحين خلا الجوّ لمحمد علي ، واول ما فكر فيه
انشاء جيش واسطول ، وقد انشأها بمساعدة الضابط
الفرنسي الكولونيل سيف Sève (مليون باشا) والفرنسيين
بسون Besson وسريزي Cerizy . وكان محمد علي يطمح

الى انشاء دولة عربية ويعلم ان المعارف والصناعة هي قوام
هذه الدولة، فاستقدم من اوربا طائفة من جلة علمائها وصناعيها



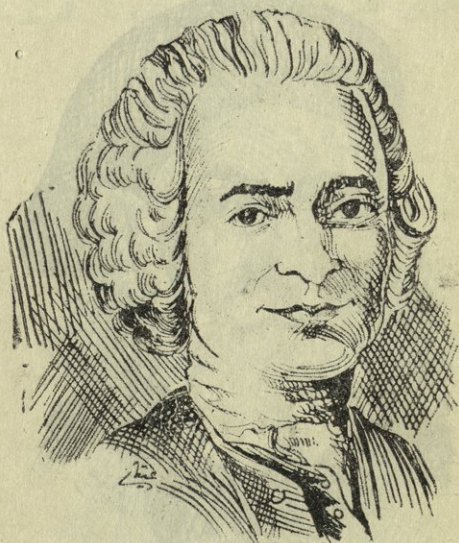
محمد علي باشا الكبير

وفي طلبهم الطيب الفرنسي كلوت بك واسمه الاصلي انطوان
روابط الفكر والروح

برتلبي كلوت ١ . وقد أسس هذا الأخير في قرية ابي زعبل ، الواقعة على مسافة اربعة فراسخ من القاهرة ، مدرسة طبية انجيت اثني عشر طبيباً مصرياً ذكرهم جرجي زيدان في كتابه « مشاهير الشرق » وهم : احمد الرشدي ، حسن الرشدي ، محمد منصور ، ابراهيم النبراوي ، حسين الميهاوي ، عيسوي النحراوي ، مصطفى السبكي ، محمد الشباسي ، محمد السكري ،

١ ولد كلوت بك في غرينوبل عام ١٧٩٣ وتوفي عام ١٨٦٨ . وكان والده من جنود نابوليون المتقاعدين فلم يترك له موردا عند موته . سوى انه كان شديد الرغبة في دراسة الطب فذهب الى مرسيليا واشتغل خادماً عند احد الحلاقين ليستطيع مواصلة دروسه . وما عم الامر ان عين طبيباً معاوناً في احد مستشفيات مرسيليا . وسرعان ما اخذت الدلائل تحاك حوله فترك منصبه في المستشفى وانصرف الى ممارسة حرفته مستقلاً فكسب شهرة كبيرة في المدينة . وفي العام ١٨٢٥ استقدمه محمد علي باشا لتنظيم الصحة في مصر على الطريقة الاوروبية ، فأسس مستشفى ممتازا في قرية ابي زعبل الواقعة على بعد ١٦ كيلومترا من القاهرة ، وجعل في هذا المستشفى مدرسة طبية نقلها الى القاهرة عام ١٨٣٣ . وقد اشتهر كلوت بك في مداواة الطاعون والكوليرا ، كما اشتهر في تنظيم المعارف العامة في مصر . ولما توفي محمد علي عاد كلوت بك الى فرنسا حاملاً مجموعة نفيسة من الاثار المصرية تركها للدولة قبل موته .

محمد الشافعي ، احمد نجيت ، ومحمد علي البقلي .
وكان السوريون واللبنانيون والمسيحيون منهم بوجه خاص



روجر

قد بدأوا يتأثرون بالثقافة الفرنسية . فلما غزا ابراهيم باشا ، نجل
محمد علي ورئيس اركان حربه ، سوريا ولبنان ، وذلك في العام
١٨٣٢ ، راح يبذل المساعي لتقريب المسيحيين اليه وحملهم على
الانتماء حوله . وكانت غرضه من ذلك اكتساب جميع

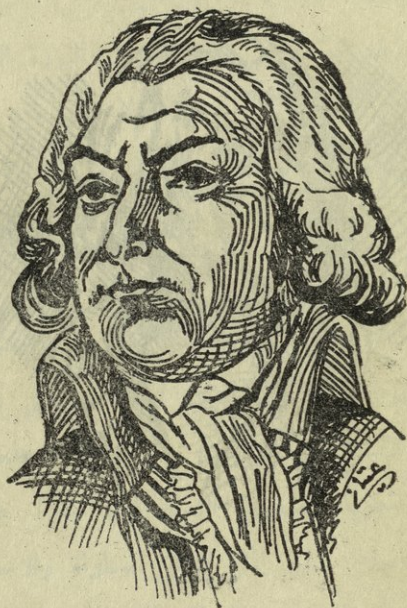
الطوائف تمهيداً لجمع العرب تحت لوائه توصلاً الى انشاء الدولة
العربية



ابراهيم باشا المصري

على ان السياسة ما لبثت ان قلبت لابراهيم باشا ظهر المجن
فعاد الى مصر عام ١٨٤٠ وتبعه اليها عدد كبير من متقفي
السوريين والبنانيين وطالبي الثقافة منهم - وكانت القاهرة
عهدئذ قبة اهل الشرق ومنار العلم والفضل - وسرعات

نشطت حركة ثقافية مباركة هي ولا شك مستهل عهد النهضة
التي رافقتها حركة الرسائل الفرنجية التي يرجع إليها الفضل
الأكبر في تحويل الشرقيين إلى منابع الثقافة الفرنسية، على



ميرابو

حد ما قلنا في الفصل السابق من هذه الدراسة
ولا نزاع في أن مبادئ الثورة الفرنسية التي حملها بولتور
إلى مصر كانت أبلغ ما تأثر به الشرقيون العرب عند أول

استكناك لهم بالحضارة الغربية ، واتساع آفاقهم العلمية والادبية ،
وبديهي ان يتعشق الشرقيون الذين عانوا ما عانوه من
المظالم والرق في مختلف عهود الاقطاعية ، مبادئ هذه الثورة



داتون

التي تميزت عما تقدمها من المبادئ بأنها لم تميز بين الخلق الا
بمقدار ما يتميزون بفضائلهم ومواهبهم . لقد قامت الثورة
الفرنسية على الفلسفة الصحيحة وهي اكتشاف شريعة الله في
المجتمع وتطبيق قوانين الشارع عليها ثم توجهه الاعقاب البشرية

من مجتمع الى آخر فلم تثر على الطبيعة فتسحق هذه الاعقاب
تحت انقاض قوانين ناقصة . فمن روح الله ، من الشعب
والعدل والانسانية استمدت الثورة الفرنسية عناصر دستورها
فكان دستور الحرية والمحبة والعقل .

وقد يأخذ الكثيرون على ابطال الثورة الفرنسية تهاكمهم
بعضهم على بعض ، ولكن هذا لا يعو من كلامهم محبة
الحقيقة الاجتماعية الكبرى ، محبة الشعب ومحبة الجنس البشري .
وأي جهد انساني يضع ؟ أي دم يهرق لاجل فكرة ولا
يُنْصَب ؟

وبقينا أن ادباء الشرق ما تأثروا بعامل اجتماعي كما تأثروا
بمبادئ الثورة الفرنسية ، بتلك المبادئ التي يستنشق الروح
الفلسفي والانساني في كل منها . ان مبادئ هذه الثورة لا أشد
ما يجذب شعوباً كمشعوب الشرق لانها صفوة طيبة من منغذير
ما علم الانبياء . انها المثل الاعلى للمساواة والاخاء بين البشر .
انها جوهر العلاقات بين الدولة والافراد . انها المجتمع الروحي
المثقف بدلا من المجتمع المستأثر الظالم . انها الدولة تصح عائلة
بشرية ، والوطن ابا لجميع ابنائه . انها من روح الله ، فאלة
فيها مصدر وضمان لجميع الحقوق . وما يجعل الثورة الفرنسية

عظيمة حتى في عواصفها واهوائها انها كانت فكرة وكانت تعاليمها من التفاوت بحيث لو ازلنا عنها خيال اليد الدامية التي وقعتا لحبل لنا انها صادرة عن عبقرية سقراط او رافة افلاطون . ولذلك عاشت هذه التعاليم وستعيش في قلوب الناس وفي عقائدهم .

جاء في اعلان حقوق الانسان « ان حقوق الانسان هي ملك جميع الناس على اختلاف قواهم الجسدية والروحية » . وان « المساواة في الحقوق هي من وضع الطبيعة . » وجاء فيه ايضاً « ان الطغاة على اختلافهم انما هم عبيد عصوا سيد الارض وهو الجنس البشري ، ومشرع الكون وهو الطبيعة . » وخطب موسى شعب اسرائيل في الاصحاح الاول من سفر التثنية قائلاً : « استمعوا بين اخوتكم واقضوا بالحق بين الانسان واخيه وزيله ولا تنظروا الى الوجوه في القضاء . الصغير كال كبير تسمعون . لا تهابوا وجه انسان لان القضاء لله . » وقال سقراط : « ان الاله الاعظم يدعم هذا الكون ويتدبره وتجتمع فيه جميع الخيرات وكل الجمال . انه يتوزع في الطبيعة ويقسط بالعدل فيها . »

وهذا الاقسط بالعدل في انوار الطبيعة وخصائصها وهباتها هو اساس الثورة الفرنسية وهو الاتجاه المشروع للقلب البشري .

فالمهون والشعراء والحكماء كثيراً ما لقوا هذه الفكرة في
نفسهم واطيروها في سمئهم واحلامهم وشرائعهم كأنها هدف
الانسانية الاعظم . ذلك أنها غريزة من العدل في الانسان فهي
إذا خطه الهية يكشفها الله لعباده . وكل من يعاكس هذه
الخطية ، أي كل من يسعى لتقرير المراتب والحقوق على اساس
الظلم فهو جاحد ، وكل من يسعى لتوزيع الارث المشترك بين
جميع الناس على اساس العدل فهو الهى . لو ان الطبقات ذات
الامتياز في عهد لويس السادس عشر ساهمت في جهود الافراد
مساهمة صادقة رضية ، ولو ان سياسة وفيه محلطة رشيدة
فسحت مكاناً لشواعر الحب والعدل لما كانت الثورة اتست
بطابعها العنيف . ففي ذلك العهد لم يكن احد يفكر في اسقاط
الملكية بل كانت كل الجهود متجهة الى جعل هذه الملكية
دستورية كاملة . سوى ان لويس السادس عشر لم يكن يحسن
الحكم ، فقد كان ملكاً فاضلاً ، ولكن الفضيلة وحدها
لا تكفي إذا لم تقترن بالمعرفة .

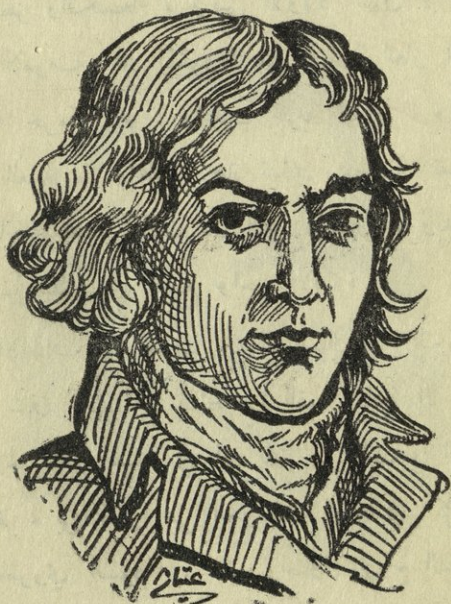
كانت الامة الفرنسية تطالب بالقضاء على الامتيازات والجشع
المستأثر لا بقلب العرش . ولم يشهد عصر من العصور التي
تقدمت الثورة مثل ذلك التحمس المحمود والمقرون بأحسن نية

واطيب قصد لاجراء اصلاح مفيد لكيان الامة اجتماعياً وروحياً .
ولو ان هذه الحركة الجميلة التي تنفي بها الشاعر اندره شينيه
نفسه في مستهل هبوبها جرت مجراها الطبيعي فلم يعكرها جهل
البلاط مدفوعاً بألوف الآثرة والجشع لما اضطرت الثورة الى
اهراق دم ابنائها .

✕ ولكن للحكمة العليا اهدافها العليا ، فقد شاعت ان تسم
الثورة بذلك الطابع الذي خلق على المنابر وفي ساحات القتال
بطولة لم يشهد مثلها التاريخ . ومن هذه البطولة المزدوجة نشأ
مجتمع تجاوز فرنسا الى سائر بقاع الارض فكانت حضارة
جديدة وكان ادب جديد هما حضارة اليوم وادبه وادب كل
زمن وحضارته .

ومن حسنات هذه المبادئ التي تحولت اليها افكار الشعوب
انها ألغت التسول بانشاء منظمات للعمل وملاجئ للعجز ،
واجبرت الاغنياء على المساهمة في اسعاف المجتمع كلاً بمقدار
طاقته ، وتبنت جميع الاطفال اللقطاء ، ووضعت لجاماً في فم
الجشع التجاري ، وقررت التعليم الاجباري لتعميم شيوعية
الفكر لان الجنس البشري هو بمثابة أب مفروض عليه ان
يختلف للحراري الوطن مبادئ جميع الافكار والمعتقدات والآراء ،

ولأن التربية هي كالهواء ينشقها جميع المواطنين على السواء ،
وأوجب أن يكون العمل جزءاً جوهرياً من التربية ، وحرارة



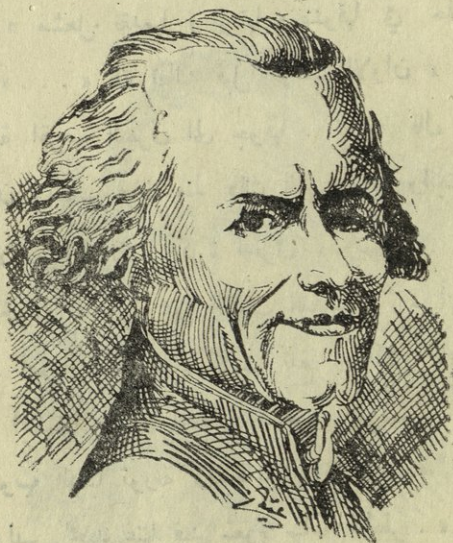
سان جوست

الأرض أولى عناصر هذا العمل . ذلك أن اشغال الحقل اشرف
حرف الانسان لأنها تقوت العامل بطريقة مباشرة ولا تمحرك
عاطفة الجشع في الكسب كسواها من الاشغال الأخرى .

وهكذا بدت ال اثره الفردية كأنها تتخفف امام مبدأ
 الاخلاص للوطن ، ففرضت الضرائب على اساس الثروة ،
 واسعف العجز والكسواء ، وتبني الاولاد الذين لا آباء لهم ،
 وانتشلت الامومة غير المشروعة من هياوية العار الذي يقتل
 الولد بهتكه حرمة الام ، واعلنت حرية الضائر ، والغني الرق
 والمتاجرة بالعبيد ، واتخذت جملة تدابير شعبية تقيم الرأفة
 السياسية بمثابة معاهدة تحالف بين الغني والفقير ، وبدت محبة
 الشعب كأنها تنتشر في جميع نواحي الادارة .

ومن الانصاف ان نعرف بان الفرنسيين ابناء الثورة الكبرى
 مشوا على ستن آباءهم فلم يستخدموا القوة المادية الا في النادر
 القليل ، ولم يخلقوا عبيداً في اي بلد من البلدان التي بسطوا
 عليها نفوذهم ، بل قضوا على العبوديات القديمة في كل مكان
 حتى في ساموري السوداء . لقد واصلوا بروح الديمقراطية
 الانساني ما بدأته رسالاتهم بروح الدين . فنوا قليلاً من
 السجون والشكنات وكثيراً من المستشفيات والمدارس والمباني
 والمؤسسات الزراعية . واعطوا اطباء للمرضى ، وعيادات
 للجرحى ، وملاجئ للعجز . وكافحوا الاوبئة وقضوا عليها .
 وفتحوا سجون الذكاء ، تلك السجون التي كانت

الارستوقراطيات المختلفة قد سجت فيها الفكر البشري .
 وروح من العدل والمثل العليا اعلنوا المساواة بين جميع الاجناس
 على تباين الوانها .



روبسيير

قلنا ان الشرقيين تعشقوا هذه المبادئ واتخذوها اساساً
 لانجاهم الفكري في الادب والسياسة . ولا يزال هذا الاساس
 حياً الى اليوم ، فبعد مرور مئة وخمسين سنة على شوب الثورة

الفرنسية احتفلت بجميع شعوب الارض الحرة بهذه الذكرى
 المجيدة وفي جملتها الشعوب الشرقية والبناني منها بوجه خاص .
 واليكم كيف ارتفع فيها صوت عمر فاخوري مهياً بامته الى
 ان تطلب « مشعل تقدمها وحربها وحقوقها في خلق السياسة
 « المتأخرة » . . . » ان تطلبه قبل فوات الاوان ، « فان خلق
 تلك السياسة اقرب الطرق الى جوفها . . . » قال : « لقد
 انقضى قرن ونصف قرن منذ ذلك العهد ، واجتاح العدو
 القاصب الارض الفرنسية ككرة اخرى ، وشهدنا في فرنسا ثورة
 لكن معكوسة : ثورة على الشعب الفرنسي تريد ان ترجع به
 للتقوى . ان الرجعية حيثما كانت تلغ في كل اناء فلا تدع
 فرصة الا اغتتمتها . . . لكن الشعب الفرنسي ، وهو من
 اعظم شعوب الدنيا ثورية واندفاعاً الى التقدم ، له تقاليد
 ايضاً ، وليس يجيد عنها قيد شعرة ساعة الخطر . » وخلص الى
 قوله : « فلتثبت للملا ان مبادئ الثورة الفرنسية وما سواها
 من الحركات التقدمية ، ليست في الكذب التي نقرأها فحسب
 بل هي ايضاً في الحياة التي نعيشها . . . »

وبقيننا انه لولا تلك الحركة السنية التي انبثقت من افواه
 فولتير وروسو وميرابو ودانتون وكميل ديمولان وصان جوست

وروسبير وغيرهم لبقى الشرق هاجعاً في حمله الاقطاعي سواء
في السياسة او في الادب . فالحركة الثورية الكبرى التي تشعبت
اندية واحزاباً لخدمة فكرة انسانية واحدة وقامت على لاولاً.



بنجمان كونستان .

الخيال الجليل في افواه خطبائها ، كانت منشأ تلك الحركة
الادبية التي نفخ في بوقها شاتوبريان ومدام ده ستال وبنجمان

كونستان وحمل لواءها لأميرتين وفيكتور هوغو وده فيني ،
وتشعبت فيما بعد الى اندية واحزاب او الى مدارس ، فكانت



سامي باشا البارودي

العرفانية وكانت الرمزية على مثال « الجبل » و « السهل » في

عهد دانتون وروبسيير .

ومن هذه الحركة الثورية في الادب الفرنسي نشأت حركة



خليل مطران

على مثالها في الادب العربي ، فمن الرومانتزم الشرقي الذي نفخ
روابط الفكر والروح

في بوقه البارودي في مصر و خليل الحوري في لبنان وحمل
لواءه شوقي ومطران وولي الدين يكن والملاط وبشاره



شيلي الملاط

الحوري وفياض وغيرهم ، نشأت رمزية مستقيمة لم تفقد فيها
اللغة حيائها قتلوا بالمساحيق كالمراة الفسارغة . وهذه الرمية
الصحيحة حمل لواءها جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا
أبو ماضي ونسيب عريضة وغيرهم .

واذا قلنا ان الثورة الفرنسية أثرت تأثيراً حاسماً في تطور الفكر الشرقي فلا يعني ذلك ان ما سلف من تاريخ فرنسا السياسي والادبي لم يكن له اي تأثير في هذا التطور ، فأول ما



الدكتور نقولا فياض

فكرت فيه الرسائل الفرنسية عندما امت هذه البلاد هو بثها الفضائل التي تحلى بها ملوكها وادباؤها ورجالها العسكريون والبحريون ، وقد كان لهذه الدعوة اثرها العميق في المسيحيين

على الخصوص ، فراحت الناشئة تعرف من معين تلك الفضائل
غذاء لتفكيرها ، واذا هي تعرف عن كلوفيس وشرلمان
والقديس لويس وفرنسيس الاول وهنريكس الرابع ولويس
الرابع عشر ، وعن دو كيكلان وجان دارك وبيار وكونده
وتورين وجان بار ودوغني تروين ، وعن رابله وديكارب
ومونتين ورونسار ومالرب وكورناي وراسين وبوالو ولافونتين
وموليير ، اكثر بكثير مما تعرف عن ابطالها وادبائها وملوكها .
وقد يكون مرد هذا الى ان الناشئة المسيحية في الشرق
حملت على الاعتقاد ، من حصر الدعوة في ما انطوى عليه
التاريخ الفرنسي من الفضائل ، بأن تاريخها لا يرتبط بتاريخ
العرب جاهلة انه من خطئ الرأي القول بأن تاريخ العرب هو
تاريخ الامة الاسلامية دون سواها .

سوى ان مبادئ الثورة الفرنسية التي أشربتها هذه الناشئة
وخاصة عند تركها مقاعد الدروس خلقت في نفوسها شعوراً
وطنياً نشأ هو بدوره من الموجة التحريرية التي غمرت التفكير
وسيطرت على المجرى الادبي ، فراحت تبحث عن عزتها الوطنية
فما وجدتة كاملة موفورة الا في تاريخ العرب . وعن هذا
الاتجاه التفكيرى صدرت المنازع السياسية في مصر وسوريا

ولبنان ، وكانت حركة مباركة غزتها روابط اللغة واواصر
الجوار وتقارب الآلام والاهداف .

وما كادت الحرب الكبرى (١٩١٤ - ١٩١٨) تضع
اوزارها حتى ارتفعت اصوات الشرقيين على اختلاف اجناسهم
داعية الى الاخاء والمحبة والحرية والمساواة . والواقع ان هذه
الاصوات كانت قد سمعت قبل نشوب الحرب الكبرى بزمن
طويل . فالحروب لا تخلق شيئاً بل تخرب وتهدم . ومن
خطل الرأي القول بأن الحرب تبدل مجاري الافكار وتوجد
حركة جديدة في الرأي ، فكل ما تستطيعه الحرب انها تعجل
احياناً تطور الاحداث .

ويمجد بنا في ختام هذا الفصل عن تأثر الشرقيين بمبادئ
الثورة الفرنسية ان ننوه بكتاب « الفكر العربي الحديث »
الذي وضعه الاستاذ رثيف خوري في العام ١٩٤٤ وتقرّد فيه
دون جميع الكتاب الذين بحثوا موضوع اتصال الثورة الفرنسية
بالشرق العربي واثّر هذه الثورة في توجيهه السياسي والاجتماعي ،
باسهاب في الشواهد والبيّنات استلزم جهداً كبيراً في البحث
والاستطلاع .

قسم المؤلف كتابه الى قسمين تكلم في الاول منهما عن

الثورة الفرنسية الكبرى ، وعامل الفكر فيها ، وتسربها الى الشرق على يد الادباء والمفكرين العرب ، وأورد في الثاني نصوصاً مختارة لهؤلاء الادباء والمفكرين . فبعد ان ألمّ المامة



رئيف خوري

واقفة بكيفية تكوّن الثورة الفرنسية واسبابها وتطوراتها واثرها السياسي في اوروبا انتقل الى بحث العامل الفكري الذي هباً السبيل الى انطلاق الثورة . وفي هذا الفصل الشائق عرض لنا

المؤلف جميع المفكرين والادباء الذين عملوا في هذا الحقل
 الحصب ليس في القرن الثامن عشر فحسب بل في القرون التي
 سبقتة ايضاً ، ولم يغفل منهم الا الفيلسوف اتيان دوله الذي
 حرق حياً في ساحة موير بباريس بسبب آرائه الجريئة ،
 وذلك في منتصف القرن السادس عشر ، والشاعر رونسار الذي
 جرؤ على ان يقول للملك نفسه :

Sire, ce n'est pas tout que d'être roi de France ,
 Il faut que la vertu honore votre enfance.

ولكنه عوض عن اغفاله هاتين الدعامين من دعائم الفكر
 الحر في القرن السادس عشر ، واتيان دوله منهما بوجه خاص ،
 باسبابه في ايضاح المزايا التي امتاز بها كل من ارباب الفكر
 الفرنسي في القرون الثلاثة التي انتهت بدفع المقصلة في وجه
 الفرور والظلم .

ومن هذا الفصل الجامع انتقل المؤلف الى بحث امر اتضال
 الثورة الفرنسية بالشرق العربي ، وهو ولا شك أهم فصول
 الكتاب والغاية الاولى من وضعه . ومعلوم ان عدداً كبيراً
 من الكتاب العرب طرق هذا الموضوع في الصحف والمجلات
 على ان الاستاذ رثيف خوري تفرّد كما قلنا بالاسهاب في

الشواهد والبيانات ، وعرض لنا معظم الادباء والمفكرين الذين تأثروا بمبادئ الثورة وما هضموه منها وما لم يهضموه مؤكداً « ان ادباءنا ومفكرينا لما اتجهوا بقلوبهم وعقولهم شطر فرنسا الثورية كانوا يرمون الى دروس ومبادئ يتعلمونها ، لا الى تأييد دولة في غرض من اغراضها الخاصة . »

فاذا كان الاستاذ يقصد بهذا الغرض فكرة الاستعمار فالاستعمار لم يكن من اغراض فرنسا الثورية عهدئذ ، واذن فالادباء المفكرون العرب كانوا يرمون بالفعل الى تأييد غرض من اغراض فرنسا الثورية وهو تحرير الشعوب من ربقة الاستعباد وبث المبادئ الانسانية التي انبثقت من افواه الادباء والمفكرين الفرنسيين في القرون الثلاثة التي تقدمت الثورة والاخير منها بوجه خاص .

سوى ان الاستاذ رثيف خوري دأب في كتابه على التوسع — من الوجهة السياسية — فجاء بكل ما يمكن ان يجيء به كاتب من الشواهد . ولم يكتف بذلك بل استنتج ما امكنه الاستنتاج . على انه كاد يحصر الفضل في تسرب بعض مبادئ الثورة الفرنسية الى الشرق العربي في « رفاة رافع الطحطاوي ورجال البعث الذين انقذهم محمد علي باشا الكبير الى فرنسا . »

وربما سها بال المؤلف عن ان للرسالات الاجنبية يداً كبرى
في تسرب مبادئ الثورة وكبار رجالها الى الشرق . ومعلوم
ان كثيرين من رجال الرسالات الاجنبية اعتنقوا مبادئ الثورة
وانضموا الى حركة نابوليون .

وصفة القول ان قيمة كتاب الاستاذ رثيف خوري هي
في غزارة مادته وفي تلك الاستشهادات الكثيرة التي لا يتوافر
مثلها الا لمن خزنت ذاكرته جوامع من الكتب تسخر لضمها
عقل بصير وثقافة شاملة .

الادب العربي والحركة الرومنظيقية

معلوم ان الجيل الفرنسي في اواخر الثلث الاول من القرن التاسع عشر طالب بسلوك سياسة اوسع فناء على منوال السياسة الانكليزية وبمقتضى تقاليد الثورة الكبرى والامبراطورية. وبديهي ان تجد هذه السياسة مسرح توسعها في الشرق ، ولا سيما في مصر اذ كان محمد علي ، وارث خطط بوناپرت ومجده ، لا يندد الا بالتعاون الفرنسي . وكانت فرنسا تطمح الى تحقيق حلم نابوليون وهو جعل البحر الابيض المتوسط بحيرة فرنسية . ولم يكن تحالفها مع محمد علي الا حركة التفاف لهدم معاهدات ١٨١٥ . سوى ان الملك لوي فيليب كان قد تعهد لانكلترا باحترام هذه المعاهدات ، ولم يشأ هو ولا وزراؤه الاصغاء الى رأي المستعيرين من ابناء الجيل الطالع .

وكان العام ١٨٤٠ عام « عودة رفات نابوليون » من جزيرة القديسة هيلانة ، فاستيقظت ايجاد الماضي في الارواح وراح تيرس بعد سقوط وزارته في الثاني من آذار يدافع



رفاعة بك الطحطاوي

عن سياسته في مصر ، واذا بنفس حربي يهب من كتاباته في الصحف .

ولم يكن تيرس يعارض في التحالف مع انكلترا ، اذ لم يكن ثمة دولة اخرى يصح التحالف معها ، ولكن بشرط ان تعترف انكلترا بحقوق فرنسا ومصالحها . وكانت ازمة الشرق



احمد فارس الشدياق

في ابانها . قال : « ان فرنسا لتشهد حروباً طاحنة كي تحول دون استيلاء انكلترا على مصر ، ولكنها لن تعارض في ان تكون مصر ممراً حراً لتجارة العالم . »

وراح يحث الحكومة على تحصين باريس وبجواهر بان لحمد
 علي موارد كثيرة وجيشاً قوياً فهو لن يعتزل الملك . وكان
 الكونت روسي ، الدبلوماسي الفرنسي المشهور ، يلزم مثل
 هذا المنطق . قال : « لقد احسنت حكومة تيرس وسيقف
 الى جانبها الرأي العام في فرنسا وفي العالم بأسره . ان فرنسا
 على أهبة التسليح ، فاذا لجأت الدول الى وسائل تتنافى مع
 مصالح فرنسا وكرامتها فلن تقف فرنسا مكتوفة اليدين بل
 تقيم العالم شاهداً على سلوكها وولائها وتضرع الى الله ان
 يبارك اعلامها كما بارك اعلام فلوروس واوستلترز . وهي لم
 تنس ان الله نصرها ثلاثين سنة . »

سوى ان انكلترا لم تأبه كثيراً لهذا الوعيد اذ لم تكن
 تجهل ان لوي فيليب وغيزو لن يعلنوا الحرب . فقام الكتّاب
 السياسيون بوجهون نقداً لاذعاً الى سياسة غيزو الذي شكل
 « وزارة الاستسلام » ، وكانت الفصول التي عقدها شارل
 ده ريموزا في « مجلة العالمين » من آلم ما وجه الى سياسة غيزو
 في ذلك الحين . على ان محمد علي لم يدافع عن نفسه بل
 استسلم دون مقاومة ، وهكذا انهارت السياسة التي سلكها
 تيرس واصحابه .

في تلك الاثناء لم يكن في الاقطار العربية جميعاً الا
جريدة واحدة هي « الوقائع المصرية » التي انشأها محمد علي



الشيخ ناصيف اليازجي

باشا في مصر عام ١٨٢٨ بمساعدة الاديب رفاعه بك رافع
الطهطاوي ، وهي اول جريدة عربية ظهرت في العالم بعد
جريدة « التنبيه » التي اصدرها جيش الاحتلال الفرنسي في

الاسكندرية عام ١٨٠٠ . على ان « الوقائع المصرية » كانت
(ولا تزال) جريدة رسمية . وكانت غاية محمد علي من انشائها
بث المعارف والعلوم ونشر التمدن الحديث ، فلم تخص ميدان
السياسة الا مقدار ما كان يلائم سياسة منشئها الكبير ، رأس
الاسرة المالكة في وادي النيل . فبقي المستنيريون في مصر وفي
سائر الاقطار العربية بمعزل عن الميادين السياسي او بالاحرى
عن القضية الشرقية التي كانت في متناول الادباء والمستنيرين في
الغرب .

ومعلوم ان مصر وان كانت في ذلك العهد قبة اهل الشرق
ومنار العلم بفضل ما اسبغت عليها جهود محمد علي الذي انشأ
المدارس ونشط حركة ارسال الوفود الى اوروبا لنقل المعارف
الغربية ، الا انها كانت تقتصر الى امثال الادباء والشعراء الذين
كانوا يبنون النهضة الادبية في لبنان وعلى رأسهم احمد فارس
الشدياق وناصيف اليازجني وبطرس البستاني ويوسف الاسير
ومارون النقاش .

في تلك الحقبة كانت حركة الرومانتم قد توطدت في
فرنسا بعد الانتصار الكبير الذي احرزته على يد لامرتين وهوغو
وفينيي وادكار كينه واسكندر ديماس وببازاك وسنت بوف

وبلانش وشارل نوديه واوغست باربيه وميشله ومونتالمير والفرد
ده موسىه وجورج صند وغيرهم ، سوى ان ادباء الشرق لم



خليل الخوري

يتأثروا بهذه الحركة تأثراً محسوساً الا حين انتشرت الحركة
الصحافية في اقطار الشرق .

ويبدأ انتشار هذه الحركة من العام ١٨٥٨ . ففي هذه

السنة انشأ الشاعر خليل الخوري في بيروت جريدة « حديقة الاخبار » . وبعد سنتين انشأ المعلم بطرس البستاني جريدة « نفيير سوريا » . وفي العام ١٨٦٣ انشأ الدكتور كرنيليوس فنديك « النشرة الشهرية » . وفي ١٨٦٦ اصدر عبدالله ابو السعود جريدة « وادي النيل » في القاهرة ، واصر فيها ابراهيم الموليحي ومحمد عثمان جلال جريدة « تزهة الافكار » عام ١٨٦٩ . وفي العام ١٨٧٠ اصدر سليم البستاني في بيروت جريدة « الجنة » وأتبعها بعد سنة بـ « الجنة » . وكانت « البشير » قد صدرت في العام ١٨٧٠ .

قلت ان حركة الرومانتزم كانت قد توطدت في فرنسا بعد ان احدثت دويًا عظيمًا وصل صداه الى اقطار المعمور . وقد استهدفت هذه الحركة في مستهلها هدم المذهب الكلاسيكي فأمرفت في تحقير من يمثله من رجال الادب والعلم ، وفي طليعة هؤلاء الممثلين اعضاء الاكاديمية الفرنسية ورجال « الكوميدي فرانسيز » التي كانت متمسكة بمسرحيات كورناي وراسين وموليير .

وكانت سنت بوف وغوستاف بلانش من اشد النقاد المتحمسين للرومانتزم فكانا يقولان بضرورة احلال مسرحيات روابط الفكر والروح

فيكتور هوغو والفرد ده فيني واسكندر دياس محل
مسرحيات كورناي وراسين وموليير ، ويجملان على الاكاديمية



فيكتور هوغو

لاقفالهـا بابها في وجه ممثلي الفن الجديد كبير النجـه ونوديه
وهوغو .

وما يؤثر عن نقاد الادب في ذلك العهد انهم كانوا

يتعمدون - عن سابق قصد وتصميم - قتل المذهب الانشائي
 القديم واحياء المذهب الجديد ، لا شيء الا لنصر مدرستهم .
 ولكن ما كاد هؤلاء النقاد يحرزون الفوز حتى القوا سلاحهم



غوستاف بلانش

وأعلنوا عدوهم عن النقد التقريضي الى النقد المستقيم .
 والواقع ان النقادين سنت بوف وغوستاف بلانش لم يتشبها

الى النهاية في ارسال البخور وقرع الطبول ، فما كادت معركة
الرومانتزم تنتهي بالنصر حتى استرجعا خريتهما واذا بفيكتور
هوغو يسقط عن عرش الالهة الذي اجلساه عليه ويصبح



سنت بوف

كسائر الشعراء من ابناء الارض لا من ابناء السماء . ولقد
بلغ غوستاف بلانش في استقلاله درجة لم يجد معها بأساً من
ان يقول لفيكتور هوغو ، عندما اصير هذا الاخير مجموعة

كاملة من تأليفه وذلك في العام ١٨٣٨ : « ان كل ما كتبه حتى الآن مقضي عليه بالموت ! ... »

ولم يتناول النقاد « المحررون » فيكتور هوغو وحده بل تناولوا جميع ابطال الرومانتزم الذين اُلهوهم في الماضي وفي عدادهم لامرتين . فلما صدرت « سقوط ملاك » لهذا الشاعر عقد سنت بوف فصلا انتقادياً قال فيه : « قد يكون لامرتين اعظم خطيب واعظم سياسي في عصره ، ولكنه حين يخوض ميدان الشعر لا يحق له ان يعطينا ابياتاً مرجلة . »

غير ان رجال الحركة الرومنطيقية الذين استرجعوا حريتهم واستقلالهم عقيب فوزهم في المعركة التي اثاروها لم يحيدوا عن تقاليدهم بل ظلوا متمسكين بها ، ذلك انهم كانوا مؤمنين بالرومانتزم الذي هو التعبير عن وجدان الكاتب . ففي العام ١٨٤٠ اعلن كذاب « مجلة العالمين » حملة على الاكاديمية الفرنسية وافهموها ان من واجبها ان تضم امثال هوغو وسنت بوف وفيني وتيري ومريه وموسه وديماس وكيه وغيرهم من ابطال الحركة الرومنطيقية .

كان ذلك في غضون السنوات العشر الاولى من الثلث

الثاني من القرن التاسع عشر . ولم تجد هذه الحركة ارضاً خصبة في الشرق الا بعد مرور سنوات عديدة على خفوتها ، اي بعد انتشار الصحافة في الاقطار العربية . وبديهي ان يتأثر



جورج صند

بها الشرقيون ، فالرومنطيقية كانت ثورة على القديم على مثال الثورة الكبرى التي تقدمتها في الميدان السياسي . فالهدنة الطويلة التي عقت اضطرابات الثورة الكبرى والهزة المجيدة التي أحدثتها

الامبراطورية اشاعت القلق في الروح الفرنسية المتشوقة الى
الجديد فكانت ثورة في الادب على مثال ما تقدمها في
السياسة .

ومعلوم ان تلك الوثبة الثورية والنابوليونية التي كانت
بالفعل ملحمة عملية واقعية كانت قد هيجت الارواح بدون ان
تفسح لها السبيل الى الانشاد . سوى انها ما لبثت في الجيل
التالي - وكان العدد الاكبر من رجال الحركة الرومنطيقية
ابناء قواد الجيش النابوليوني - ان اضرمت شعلة من الشعر
لم يعرف مثلها منذ عهد رونسار .

وكان الشرقيون الذين عاشوا عهداً كثيرة من
الاضطرابات على مثال الفرنسيين ، فما انتهى اليهم التمدد
الحديث وحصل ذلك الاحتكاك المباشر بينهم وبين الحركة
الادبية في الغرب حتى كانت الرومنطيقية اول جرعة أشربوها
فاصطبغ بها ادبهم ولا تزال متغلبة عليه حتى يومنا هذا .

عهد النقل والافتباس

كان الادباء المقلدون ، ادباء المديح والثناء والالغاز
والاحاجي ، ييصقون آخر اسنانهم - وقد أستقي منهم اديبين
او ثلاثة جرؤوا في ذلك العهد التقليدي في التفكير والشعور
على تلمس شخصياتهم ، وفي جملتهم الشاعر فرنسيس فتح الله
مراش الذي توفي في السابعة والثلاثين من عمره ، ويكفيه انه
هو القائل :

انا على ما انا من الخلق باق على مذهبي وفي طريقي
فلا كبير سطا علي ولا يد لها منة على عنقي
ولا اشترت الثناء من احد بالمال بل بالجهاد والارق
أسقي غروسي فان اجد ثراً أقطف والا رزيت بالورق
كان الادباء المقلدون ييصقون آخر اسنانهم حين احتل
مكانهم ادباء اقوى شخصية ، واسلم بياناً ، وامتن لغة ،

وارقى ثقافة ، ولكنهم ... ناقلون او مقتبسون .
 وكان من عادات ذلك العصر ان الناقل لا يذكر اسم



فرانيس مراه

المنقول عنه . ويكفيه ان يبدل الاسم ليملك الجسم . وقد
 يكون اول من اتبع هذه القاعدة الاديب مارون النقاش ،

مؤسس فن التمثيل في اللغة العربية . فقد نقل مسرحية
 « البخيل » لموليير — وهي اول مسرحية كتبت باللسان
 العربي — ولم يذكر انها لمؤلف « تروتوف » و « الميزانثروب » .
 ولا شك في ان مارون النقاش ، رحمه الله ، اراد ان
 ينتقم للشاعر الروماني بلوت الذي اخذ عنه موليير مسرحية
 « البخيل » — وهي تقليد موفق لمسرحية « الاولولير » للشاعر
 الروماني الهزلي — فلم يذكر اسمه ولا أبه له .
 واليكم مشهداً من مسرحية « الاولولير » نقله موليير في
 مسرحيته « البخيل » :

اوكلبون (وحده) : لقد قضي علي ! لقد مت !
 لقد قتلت ! الى اين اركض ؟ الى اين لا اركض ؟
 قف ! قف ! من ؟ لا اعلم . لا ارى شيئاً . فانا اركض
 كالاعمى . لم ابق اعرف اين انا ، ومن انا . ارحموني .
 اتوسل اليكم . تعالوا الى نجدي . دلوني على السارق .
 (يلتفت الى النظارة) انتم الجالسون هنا ، المختبئون
 بثيابكم البيضاء كما لو كنتم من الشرفاء . . . ماذا تقول
 انت ؟ يجب ان اصدقك لان سحنتك تبدل على انك
 رجل طيب . . . ماذا ؟ اتضحك ؟ آه ! اني لاعرفكم

جميعاً واعرف ان في هذا المكان اكثر من لص واحد . . .
 ماذا ؟ من منكم يخفي دراهمي ؟ لا أحد ؟ انكم تميثوني .
 تكلم انت ! اين دراهمي ؟ الا تعرف ؟ يالي من مسكين !
 يالي من بائس ! لقد قصّوا لي حنجرتي . لقد تركوني بدون
 ملجأ ! ياله نهراً حمل الي الدموع والحزن الاسود والجوع
 والفقر ! آفي العالم مخلوق أشدّ بؤساً مني ؟ ماذا بقي لي على
 الارض وقد فقدت كل ذهبي ؟ كنت احرم نفسي ضرورياتها
 لاجل المحافظة عليه ، واذا بغيري يتمتع به ويهزأ بفقرتي
 وخرابي !

واليكم كيف نقله مولير في « البخيل » :
 هرباغون (يصرخ الى اللص ، ويدخل بدون قبعة) :
 الى اللص ! الى اللص ! الى القاتل ! الى الجاني ! عدلك ايتها
 السماء العادلة ! لقد انهدمت ! لقد سفكوا دمي ! سرقوا
 مالي ! من السارق ؟ ماذا حل به ؟ اين هو ؟ في اي مكان
 يختبئ ؟ ماذا اعمل لاهتدي اليه ؟ الى اين اركض ؟
 الى اين لا اركض ؟ أليس هو هنا ؟ أليس هو هناك ؟
 من هذا ؟ قف ! قف ! أرجع الي مالي يا احمق ! (يقبض
 على نفسه) آه ! هذا انا ! لقد فقدت شعوري ، واجهل في

اي مكان انا ، ومن انا ، وماذا اعمل . او اه ! يادراهمي
 المسكينة ، يادراهمي المسكينة ، يا صديقتي الحبيبة ! لقد
 حرمتك . وبما انك نزعنت مني فقد فقدت سندي وعزائي
 وفرحي . آه ! انتهى كل شيء ولم يبق لي حاجة بالدنيا .



كورناي يتلو مقطعاً من احدى مسرحياته على صديقه مولير
 فبدونك يادراهمي لا يستطيع الحياة . قضي الامر ، قضي
 الامر ! آه ! اني اموت . لقد مت . لقد دفنت . أما من
 احد يستطيع ان يحيني بردّ دراهمي اليّ او باطلاعه اياي على
 من سرقها ؟ آه ماذا تقول ؟ لا احد . . . لا بد ان هناك
 احداً سرقها بعد ان سعى كثيراً لاغتنام الفرصة . ولا شك
 ان السارق عرف كيف يستفيد من الوقت حين كنت اخاطب

ابني الحائن ! فلا تخرج . يجب ان ارفع شكواي الى العدالة
واوقع الواقعة في البيت بين الخادمت والخدم والابن والابنة
وانا ايضاً . . . (يلتفت الى النظارة) من هم هؤلاء ؟ انهم
كثيرون . لا يقع نظري على اي منهم الا ينجل الي انه
السارق . به ! عم يتكلم هؤلاء ؟ أعن الذي سرق دراهمي ؟
وما هذه الضجة التي اسمعها ؟ اترى اللص الذي سرقني هو
هنا ؟ بحقكم جميعاً ، اتوسل اليكم ان تهودوني الى مكان اللص
ان كنتم تعرفون بأي مكان يقيم ! أليس محتبئاً هنا بينكم ؟
اراهم ينظرون الي ويضحكون . لا شك انهم مشتركون في
السرقه . هيا ، أحضروا الشرطة . أحضروا القضاة . أحضروا
آلات التعذيب . احضروا المشانق والجلادين . اريد ان
اشق جميع الناس . واذا لم اجد دراهمي اشق بعد ذلك
نفسي .

وقد كتب المرحوم جرجي زيدان في « مشاهير الشرق »
ان « مارون النقاش ضم اليه جماعة من اصدقائه الشبان النجباء
الادباء وأخذ يعلمهم التمثيل والفرس لهم رواية « البخيل »
فعلمهم ادوارها حتى اتقنوها ومثلوها في بيته ببيروت سنة
١٨٤٨ في ليلة حضرها قناصل المدينة واعيانها فأعجبوا بما

شاهدوه من دقة التمثيل واتقان التأليف مع حداثة هذا الفن ،
فشاع خبر ذلك حتى تناقلته الصحف الافرنجية . «
والواقع ان النقل والتأليف كانا واحداً في ذلك العهد ،
فكما كان راسين منصرفاً الى نهب هوميروس واوريديس
وفرجيل وسنيكا وتاسيت وغيرهم ، وكان كورناي جاداً في
اقتباس « السيد » من اللغة الاسبانية ، ولافونتين يفاخر
باستعاراته واخذه عن الاقدمين ليس مواضع اساطيره فحسب
بل طريقتها ايضاً ، وموليير يجاهر بقوله انه يأخذ ملكه حيثما
يجده ، هكذا رجال النهضة الادبية في القطر العربي خلال
النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فقد كانوا منصرفين الى
النقل والاقتباس .

وكما ان احداً لم يلقب راسين وموليير وكورناي بجفاري
القبور وناهي الجثث - وكان الاربعون خالداً او اعضاء
الاكاديمية الفرنسية يذهبون الى ان التأليف والتقليد شيء
واحد وان التفوق على الاقدمين يتوقف على الاجادة في
تقليدهم - فلم يخطر لاحد ان يأخذ على نجيب الحداد مثلاً
نقله مسرحية « غرام وانتقام » عن « السيد » لكورناي ،
ومسرحية « حمدان » عن « هرناني » لفيكتور هوغو ،

وقصة « غصن البان » عن قصة « رافائيل » للامرتين ، وهلم
جراً . فراسين ومولير وكورناي ولافوتين من جهة ، وابطال
الرومانتزم كهوغو ولامرتين واسكندر ديماس من جهة اخرى ،



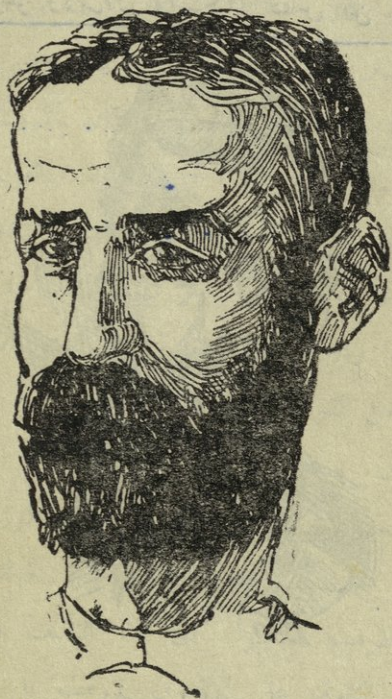
نجيب الحداد

كانوا سهولا واسعة الارحاء يحق لاي اديب ان يطأها ويصطاد

فيها .

ولكن اذا حق لنا ان نقول ان كورناي وراسين ومولير

ولافونتين ابتدعوا في ما اتبعوا ، وخلقوا في ما سرقوا ، وانه
لولا منقولهم لبقى الاصل مجهولا ، فلا يحق لنا ان نطبق هذه



اديب اسحق

القاعدة على ادبائنا الذين نقلوا ذلك المنقول الى اللسان العربي .
على اننا لا نستطيع ان ننكر ما كان لنشاطهم الادبي من الفضل

على النهضة في ذلك العصر . فاقدام نجيب الحداد على ترجمة
روائع الغرب بأرقى اسلوب كتابي عرف يومئذ ، وقيام اديب
اسحق الذي ابتدع طريقة في الانشاء بليغة احسن فيها التطبيق
بين الاسلوبين الفرنسي والعربي بمشاركة سليم النقاش في نقل
المسرحيات الفرنسية الراقية وتمثيلها ونشرها ، احداثا حركة ادبية
لم يسبق مثلها في العالم العربي وكانت فاتحة عهد خصب بالنقل
والاقتباس نشأ عنه عهد خصب بالتفكير والتأليف .

واذا كان عهد اديب اسحق ونجيب الحداد عهد نقل واقتباس
فقد كان عهد احساس مرهف في لغة مصانة من الابتذال .
فاذا عمد اديب لنقل طريقة فرنجية الى لسانه فأول همه ان يلبسها
حلة قشبية من البيان كهذه الجمل التي نقلها اديب اسحق عن
الكاتب الفرنسي فولني :

Conserve - toi ; instruis - toi ; modère - toi ;
vis pour les autres pour que les autres vivent
pour toi .

ذاتك احفظ وتفقّه واعتدل واحي للناس ليحيا الناس لك
او كهذه الجملة التي نقلها اديب عن فيكتور هوغو :

Tuer un homme dans un bois est un crime
impardonnable ; tuer un peuple est une question.

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
 وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر
 ومتى علمنا ان نجيب الحداد سلخ شطراً كبيراً من حياته



بشاره الحوري

القصيرة في نقل قصة « الفرسان الثلاثة » لاسكندر ديماس علمنا
 اي جهد كان يبذله ادباء ذلك العهد في نقل روائع
 الاجانب . واذكر ان المرحوم طانيوس عبده قال يوماً للشاعر

بشاره الحوري - وكنت حاضراً - ان نجيب الحداد بدأ
بنقل « الفرسان الثلاثة » وهو في سحرة الشباب وفرغ منها



حافظ ابراهيم

وهو في شرحه .

وعلى اثر ذلك العهد اقبل عهد التكليف والاتباع ، عهد

شوقي وحافظ ابراهيم وولي الدين يكن . فالشاعر الشاعر من
يحسن السير على غرار فيكتور هوغو والفرد ده موسى . على
ان اللغة لم تكن فقدت حياءها بعد ، فهي لغة المتنبى وابي



ولي الدين يكن

تمام والبحري او الاحنف او بهاء الدين ، وهي لغة الجاحظ
وابن عبد ربه والمسعودي وابن خلدون . فالرومانتزم الفرنسي
لم يقتل البيان العربي . وما كان اداؤنا في تلك الحقبة الا
صورة مصغرة عن ادباء فرنسا في العهد الرومانيقي .

ففي الثلث الاول من القرن التاسع عشر شغف ادياء
فرنسا بالادباء الاجانب شغفاً لا رادع له ولا زاجر ، وراحوا
يبتون الدعوة لهم مطرين فضائلهم مشيدين بعبقرياتهم ، فمن



بوشكين

يريد ان يهتدي الى سر الشعر الصحيح فليقرأ « المهزلة الالهية » ،
ومن يريد تجديد القصة فليقلد ولتر سكوت ، ومن يريد تجديد

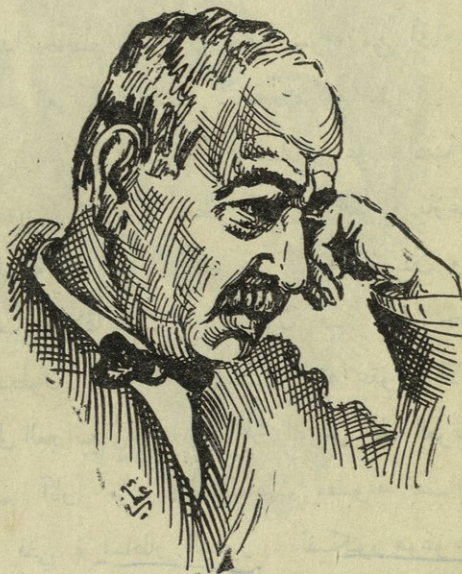
المسرح فليقلد شكسبير . وفي ذلك العهد كانت روسيا قد اعطت
 اول شعرائها اسكندر بوشكين وهو من جد عربي ولم يعيش
 الا ثمانية وثلاثين عاماً ، فنبتشه الادباء الرومنطيقون وراحوا
 يحثون على الاقتداء به .

ولا نزاع في انه من الضرورة الاطلاع على ادب الاجانب
 للاستفادة من كنوزه ، ولكن الاستفادة من هذه الكنوز لا
 تقضي الى التخلي التدريجي عن السجايا الوطنية ، واختلاط المشارب
 وطرق التفكير لا يفقد امة فضائلها ومزاياها . فاقتداء الادباء
 العرب في تلك الحقبة من الزمن بادباء فرنسا لم يفقدهم طابعهم
 العربي . وما كان تأثر شوقي بفيكتور هوغو مثلاً لينسيه ديباجة
 المتنبى . ففي قوله :

ولقد اقول وادمعي منهلة	باريس لم يعرفك من يغزوك
تلدن اعلام البياض كأنهم	اصحاب تيجان ملوك اريك
فاضت على الاجيال حكمة شعرهم	وتفجرت كالكوثر المعروك
العصر انت جماله وجلاله	والركن من بنيانك المسموك
اخذت لواء الحق عنك شعوبه	ومشت حضارته بنور بريك
وخزانه التاريخ ساعة عرضها	للفخر خير كنوزها ماضيك
في هذه الابيات كما في سواها من كل ما انتج شوقي	

تفكير فرنسي في قالب عربي ، بل في ارقى قوالب العرب .
وقد يكون قول شوقي :

والحرية الحمراء باب بكل يد مزرجة يدق



احمد شوقي

ارقى ديباجة واقوى نفساً من قول الشاعر الفرنسي اوغست
باربيه عن الحرية :

Qui ne prend ses amours que dans la populace
 Qui ne prête son large flanc
 Qu'à des gens forts comme elle, et qui veut
 qu'on l'embrasse
 Avec des bras rouges de sang .

وهكذا حافظ شوقي كما حافظ سواه من ادباء تلك الحقبة
 على السجية العربية في تثقفه بثقافة الفرنجة .

قلت انه من الضرورة الاطلاع على ادب الاجانب
 للاستفادة من كنوزه . فمعظم كتاب العربية ينزعون في
 نهضتهم الحديثة الى قراءة التليد من ادمغة الغربيين واقتباس ما
 يرونه حسناً وملائماً البيئة التي يعيشون فيها ، في حين ان ادباء
 الغرب يحيطون علماً بالكثير مما ولدته عقول الاقدمين من
 اليونان الى العبرانيين الى اللاتين الى الفرس الى العرب ، ونرى
 في ثقافتهم آثاراً من تلك الثقافات مطبوعة بطابع نفوسهم
 الخاص ، ففي « اساطير الدهور » لفيكتور هوغو عرف طيب
 من التوراة والالابذة ، وفي « الفردوس المفقود » لملتون وحي
 مستمد من سفر التكوين ، وفي قصيدة لامرتين « سقوط ملاك
 او آلهة لبنان » المتضمنة اثني عشر الفاً من الابيات وثبات
 متأثرة ببعض فصول من « تشنية الاشتراع » و « سفر الملوك »

الثالث « وبعض فصول من « سفر التكوين » ، وفي مطلع



لامرتين

قصيدة « فوست » لغوتي شبه قريب بمطلع « سفر ايوب » .
ولا سبيل لنا ان ننكر ان الادب العربي لم يبلغ في اي

عصر من عصوره منذ فجره الى اليوم ما بلغه الادب اليوناني او اللاتيني او العبراني . ففيمَ يشيخ الادباء والمتأدبون في البلاد العربية عن تلك الذخائر الالهية المدفونة في مطاوي كتب اليونانيين واللاتين والعبرانيين ؟ فاية فلسفة تضاهاى في صدقها وعمقها فلسفة ابن سيراخ ، واية شاعرية تضاهاى في جمالها وروعها شاعرية سليمان في « نشيد الاناشيد » وشاعرية ايوب في سفره ، واية شرائع اثبت واسمى من الشرائع الانسانية الجميلة في بعض اسفار « تثنية الاشتراع » ؟

جاء في هذا السفر : « اذا حصدت حصادك في حقلك فنسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها انها للغريب واليتيم والارملة تكون . واذا خبطت زيتونك فلا تراجع ما بقي في الاغصان انه للغريب واليتيم والارملة يكون . واذا قطفت كرمك فلا تراجع ما بقي منه للغريب واليتيم والارملة . »
فهذه الشرائع السامية اوحى الى لامرتين اجمل مقطع في قصيدته « سقوط ملاك » فقال بلسان النبي الشيخ : « دعوا خبزكم على عتبة بيتكم للجائعين ، واتركوا بعض ثمار على غصونها لعابري الطرق . »

وتكاد طرفة لامرتين هذه — وهي لا تخلو من اسباب لا

طائل تحته - تمتاز جميع فصولها بأسفار التوراة . اما فكرة القصيدة فقد استوحاها لامرتين من الآيتين الاوليين من الفصل السادس من سفر التكوين وهما : « ولما ابتدأ الناس يكثرُونَ على وجه الارض وولد لهم بنات رأى بنو الله بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا . »

وكان الشاعر الانكليزي توماس مور قد نشر في العام ١٨٢٠ قصيدة رمزية في « غرام الملائكة » نبهت الشاعر الفرنسي الفرد ده فيني الى قراءة التوراة فاذا به يطلع على الادب بقصيدته الكاملة « الوى ، او اخت الملائكة » التي ترمز الى انتصار الشر على الخير .

استوحى الفرد ده فيني قصيدته هذه من الآية الثالثة عشرة من الفصل الثالث من سفر التكوين وهي : « فقال الرب الاله للمرأة : ماذا فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية أغوتني فأكلت » ، ومن الآية السادسة من الفصل السادس من سفر التكوين وهي : « فندم الرب انه عمل الانسان على الارض وتأسف في قلبه . »

وقال الشاعر الفرنسي في المقطع الاخير من قصيدته هذه : « كزنبقة لاطمها الهواء فحركت انداءها . » كأنه تذكر

موت اوربال في النشيد التاسع من قصيدة « الانبأة » للشاعر
 اللاتيني فرجيل اذ جاء فيها : « وسقط ميتاً فغمر الدم جسده
 الجميل - رائحة الطبيعة - والتوى رأسه المثل على كتفه
 كزهرة جميلة قطعها شفرة المحراث فذبلت على الارض وماتت ،
 او كأعشاب نهكتها العواصف فحنت رأسها المثل بالامطار . »
 واستلهم ملتون ملحمة الخالدة « الفردوس المفقود » من
 سفر التكوين ، فهي اثنا عشر نشيداً تدور حول سقوط آدم
 وحواء . نرى الشيطان في الاناشيد الثلاثة الاولى عاقداً مجمع
 ابالسة للانتماء على العالم الجديد الذي خلقه الله ، الا أن الله
 يعرف بالخطئة الجهنمية هذه فيعلن الملائكة سقوط الانسان ويصح
 عزمه على ارسال ابنه ليخلصه . وننتقل في الاناشيد الخمسة التالية
 الى جنائن عدن فنسمع حواء تطلع آدم على حلم ألقها . وفي
 هذه الآونة يهبط الملاك رافائيل من السماء ويحذر آدم من فخاخ
 الروح الشريرة . على ان الشيطان ينسل في النشيد التاسع
 والعاشر الى عدن ويستحيل الى حية . وعندئذ تبدأ التجربة
 ويتنصر الشيطان . ولكن الانتقام الساهوي لا يلبث ان يحول
 جميع رفاق الروح الشريرة الى حيات فيذهب القنوط عن آدم
 ويدعو حواء الى ملاشاة غضب السماء بالصلاة . وفي النشيد

الاخيرين نرى ابن الله يضرع الى ابيه لكي يغفر خطيئة الرجلين
الاولين فيقبل الله بذلك ، الا انه يرسل الملاك ميخائيل ليقول
لآدم وحواء انهما منفيان وان المرض والموت سيلحقان بهما بعد
اليوم .

وهذا الموضوع العظيم الذي لا يقتصر على تاريخ أسرة او
شعب بل يتناول تاريخ الانسانية منذ مدرجها الى اقصى عهد من
عهدوها الآتية ، مستوحى بجملته من هذه الآيات في الفصول
الاولى من سفر التكوين وهي : « في البدء خلق الله السموات
والارض . وكانت الحية أحيل جميع حيوان البرية الذي صنعه
الرب الاله فقالت للمرأة أيقيناً قال الله لا تأكل من جميع
شجر الجنة ؟ ورأت المرأة ان الشجرة طيبة للأكل وشهية
للعيون وان الشجرة منية للعقل فاخذت من ثمرها واكلت
وأعطت بعلمها ايضاً معها فاكل . فقال الرب الاله للحية اذ
صنعت هذا فانت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحش
البرية ، على صدرك تسلكين وتراباً تأكلين طول ايام حياتك .
بعرق وجهك تأكل خبزك حتى تعود الى الارض التي أخذت
منها لانك تراب والى التراب تعود . »

وقد زين ملتون موضوعه هذا بجميع زهرات الشعر القديم

فاذا هو لا يزال واقفاً على قمة من قمم الشعر لا يأمل أن يرقى
اليها الا القليل من البشر .

واذا عددت الروائع الخالدة التي استوحيت من الاقدمين
فقد يستغرق ما يحضرنى من اسمائها مجلداً ضخماً .

من
عليه
عش
فينف
الحا
الري
كه
ان
كر
وفو
القص

ينقلون ما هب ودب

لم يسبق لادباء العربية ان اقبلوا على نقل ما هب ودب
من نتاج الغربيين ، والفرنسيين منهم بوجه خاص ، اقبلهم
عليه في مستهل القرن العشرين . ففي اواخر القرن التاسع
عشر كان ادباؤنا ينتقون متخير القصص والمسرحيات الفرنجية
فينقلونها او يقتبسون منها ، اما في السنوات الاولى من القرن
الحالي فقد تقشى في الكثير منهم داء النقل السهل طمعاً في
الربح المادي بسرعة وعلى اهون سبيل ، حتى ان ادبياً حقاً
كطانيوس عبده ، رحمه الله ، لم يكن يجد اية غضاضة في
ان يصرف ايامه ولياليه في تعريب قصص ثلاثم اذواق الجمهور
كروكامبول (وقد اصدرها في سبعة عشر جزءاً) وبودليان
وفوستا وما انتجته مخيلة زيفاكو واضرابه من ادباء المغامرات
القصصية والانشاء التجاري ، وحتى شاعت النشرات الروائية

في الشرق كالمجلة الاسبوعية لنقولاً رزق الله ، والمجلة الشهرية ،
والراوي لطانيوس عبده ، ومجلة الجيب وغيرها ، وهي لا تحمل

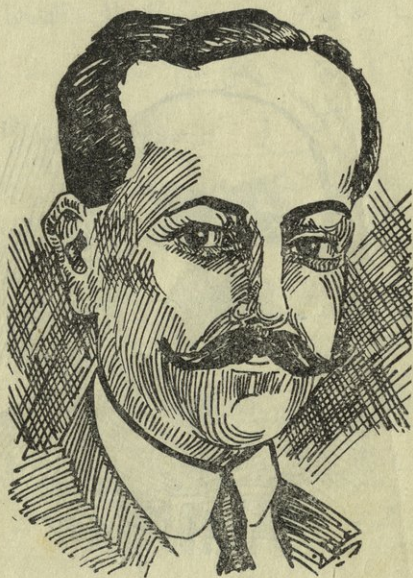


طانيوس عبده

الى القراء الا سقط المتاع من صادرات الغرب .

على انه فيما كان طانيوس عبده ونقولاً رزق الله واضراهما
منصرفين الى تسليّة الجمهور ، كانت فرح انطون ومصطفى

المنفلوطي واضرابها منصرفين الى تثقيفه . وقليلون هم الادباء
الذين كانوا يجرؤون على التأليف كجرجي زيدان فيرجعون الى
تاريخهم ويعتمدون على موهبتهم في ما ينتجون .



فرح انطون

فما كان طانيوس عبده يهبط الى مستوى الجمهور بنقله
الفيكوت دي براجيلون وعقد الملكة والملكة ماركو ومونت
كريستو وغيرها من القصص التي خرج بها اسكندر ديماس عن
 روابط الفكر والروح

حيز الادب شأن اوجين سو بأسرار باريس واليهودي التائه
وسواهما من القصص التي امتازت بالخيال الرحب دون الانشاء
الادبي الرفيع ، كان فرح انطون يعمل على رفع مستوى



مصطفى لطفي المنفلوطي

الجمهور بنقله بولس وفرجينى والكوخ الهندى وأتالا وتاريخ
المسيح وسواها من المؤلفات الفرنسية المشهورة بقوامها الادبي
وهدفها الانساني ، وكان المنفلوطي يشخص الى الهدف نفسه

بنقله صدرأ وافرأ من متخير القصص والاقوال الفرنسية بتلك
 الديباجة المشرقة التي اشتهر بها .

ولا اجد هنا بدءاً من ابداء ملاحظة وهي ان القصص
 الشعبية التي نقلها طانيوس عبده وامثاله الى اللسان العربي لم
 تخلُ من فائدة كما انها لم تخل من ضرر . فقد كان لهذه
 القصص المستهوية اثر كبير في حمل الجمهور على القراءة وفي
 افارة جوانب نفسه بما تتطوي عليه من الاغراض الاجتماعية
 والسياسية . على ان من هذه الاغراض ما اساء الى التاريخ
 بتحريفه من جهة وإلى الآداب من جهة اخرى . فمعظم
 القصص الشعبية التي نقلت الى اللسان العربي مشحون بما يقدر
 الحب وينسب الى الملوك ورجال الكنيسة جميع انواع الجرائم
 والمحازي . وربما كانت هذه القصص اثرها السيئ في الآداب
 العامة ويد في البؤس الادبي والثقافي الذي لمس في ذلك
 العهد .

ولم يكن النقل او الاقتباس مقتصرأ في ذلك الزمان على
 النثرين بل كانت يتعداهم الى الشعراء . واليكم مثالا من
 ارتفاع الكلفة بين شعرائنا وشعراء الفرنجة : قال المرحوم
 الياس فياض في ديوانه انه دعي الى التحرير في احدى الجرائد

المصرية فما بلغ ظهر الباخرة حتى تنشق نسيم الحرية فخيّل إليه
 ان العدل والامن والحرية والمساواة والاخاء والشرف قد
 هجرت المدينة معه ، ورأى شبح الذل واقفاً على الشاطئ



اسكندر ديماس

مستهزئاً بأولئك المهاجرين الكرام ، فنظم قصيدة ذكر فيها
 ما قاله له « العدل » و « الامن » و « الحرية » و « المساواة »

و « الاخاء » و « الشرف » ، وختم قصيدته بقول
« الذل » :

ايها النابذون عنهم بعيدا وطناً صار اهلك لي عبيدا
قد اتيتم بالهجر امراً حميدا فبلاد يرى بها الذل رزقا
هاجروها ، اما انا فسابقي

والواقع الذي لا نزاع فيه ان الشاعر الياس فياض ما بلغ
ظهر الباخرة حتى تذكر قصيدة ليفيكتور هوغو في « العقوبات »
Les Chatiments نظماً وهو منتقل من فرنسا الى منفاه في
جرسي . فقد تصور الشاعر الفرنسي في قصيدته ان جميع
الفضائل قد هجرت فرنسا معه الا الذل الذي بقي فيها ،
وختمها بقول الذل : *Moi je reste !* . وقد يحق لنا ان
نتساءل : أفي ذلك الزمان الذي كان لبنان يرتع فيه ببجوحة
« الامتيازات » يهاجر العدل والامن والحرية والمساواة والاخاء
والشرف الى الارض التي قال فيها حافظ ابراهيم :
ثلث قرن الا قليلاً نعاني

ما يعاني من هونه كل عبد ؟

واذا قال قائل ان ارض الولاية ، ارض بيروت
السورية ، لم تكن في ذلك العهد حرة كأرض لبنان فنقول

له ان ارض مصر لم تكن اسعد حظاً من ارض سوريا .
 وقد بقي شوقي الى الامس القريب يلمع الى ذلك بقوله :
 وعلينا كما عليكم حديد تنزى الليوث في قضبانه
 واذا نحن رجعنا الى القوائد التي بنى عليها شعراء تلك
 الحقبة شهرتهم الادبية نرى معظمها منحولا عن شعراء
الفرنجية .

ولم يقتصر النقل او الاقتباس على كتاب العربية في ذلك
 العهد بل تجاوزهم الى الكتاب الترك ايضاً . وقد قصّ عليّ
 الدكتور رضا توفيق ، زيل لبنان لسنوات خلت ، قصة اكتشافه
 مصدراً غرّف منه الشاعر التركي حامد حصة كبيرة من
 افكاره .

كان الدكتور رضا توفيق وحامد صديقين حميمين ، وكان
 كل منهما يحترم الآخر ويحبه ، وكثيراً ما كانا يصرفان الليالي
 بين الخمر والادب . وفي احدى الليالي قام الشاعران بجولة على
 ضفة البوسفور ، وبعد ان نالا من الخمر حتى اكفيا دعا حامد
 صديقه رضا توفيق الى تمضية الليل في بيته . وكان الخمر
 أبقت في نفس الشاعر رضا شوقاً ملحاً الى تصفّح ما يطبع
 الليل على صحائف البوسفور فاستلقى على سريره وأطلق عينه

في الابعاد . وهو على ما به شعر بجسم تحت الوسادة فرفعها
فوجد كتاب « الله » ليفكتور هوغو . وكان حامد قد أحلّ
صديقه رضا في محله . فأخذ هذا الأخير يتصفح الكتاب



الياس فياض

فاستوقفت انتباهه علامات موضوعة بجانب مقاطع من الشعر
عرف الدكتور رضا ان صديقه تبنى معانيها في شعره . ومنذ
ذلك الحين راح يتعقبه قتيبن له ان حامداً انتحل هوغو ولامرتين

وكورناي وشكسبير وغيرهم .

ولا نريد بهذا ان ننكر فضل هؤلاء الادباء ، فقد كانوا
فاتحة حسنة لهذا القرن بخروجهم في حلبة الشعر على غفلة



الفرد ده موسى

القرن التاسع عشر ، وان قصرُوا في حلبة النثر وفي التوسع
الفكري عن بعض جهابذته كالشدياق واليازجي واديب
اسحق والحداد .

وقد قلنا فيما سبق لنا قوله انه اذا حق لنا ان نلومهم

فعلى كونهم شهدوا خلال الحرب الكبرى اوجع مأساة عرفها التاريخ ولم تشهد لاقلامهم منظراً موجعاً من هذه المأساة ، اللهم الا بعض قطع لا قيمة لها . أميراً بنا المنجل الاسود على سفرتة المقوسة كجناح الموت سجن الجوع والمرض والذل والظلم والحق ولا يقوم فينا شاعر او ناثر يغمس ريشته في هذا البؤس ؟ الا يقوم فينا شاعر او ناثر اجتوت عيناه حصيد تلك الشهادة فيطبع على جبين التاريخ الادبي لوحة خالدة بما انطبع على عينيه ؟

وفي ذلك الزمان كان ادباء العربية في المهجر الاميركاني يعنون بالفكرة والالوان والموسيقى اكثر مما يعنون باللغة وقواعدها ، وكان موقف ادباء الاقطار العربية منهم كموقف البارناسيين الفرنسيين من بعض ادباء العهد الرومنطقي على وجه التقريب . ففي العام ١٨٦٦ عندما اذاعت المدرسة البارناسية مبادئها راحت تتحي باللائمة على الشعراء الذين يهتمون العناية باللغة وقواعد النظم فيسلكون مثلاً مسلك الفرد ده موسى الذي كان له من عبقرية مايشفع بقوافيه المضطربة . ومعلوم ان قافية « Passer » مثلاً كانت تردوج في شعر ده موسى بقافية « Chercher » وقافية

« Mèler » بقافية « Donner » وهلم جراً :

سوى ان الشعراء البارناسيين كجوزي ماريا ده هريديا
وبودليو وليكونت ده ليل وفرانسوى كوبيه واضرايهم كانوا
يرتفعون بقوة افكارهم وجمال صورهم الى مستوى الصياغة والمثانة
اللتين كانوا يطالبون بالتمسك بهما فلم يهبط الفني معهم عن



جبران خليل جبران

مرتبة الشاعر ، خلافاً لادبائنا الذين كانوا يأخذون على جبران

والريحاني وعريضة واخوانهم من رجال الرابطة الادبية في المهجر
 ضعف لغتهم ونبذهم القواعد المأثورة في النظم والنثر .
 والواقع ان الناشئة الادبية لم تجد في صحة الانشاء ومثاقه



امين الريحاني

عند ادبائنا ما يعوض عن هزال افكارهم وصورهم ، فشخصت
 بارواحها وقلوبها الى ادبائنا الآخرين في المهجر الاميركاني وقطعت
 الى الابد بينها وبين ذلك الادب البطريكي او السلطاني الذي

تفشى قبل الحرب الكبرى وفيها ، هذه الحرب التي عطلت
الصحف الا المملوكة منها وغضت شرف الفكرة الحرة في
الكثيرين من رجال القلم ، فاصبح الادب سلعة تباع على ابواب
الحكام بنجوراً وقرايين .

وسرعان ما تفشى في هذه الناشئة ادب لفظي لا يعترفه
اي نبوغ او اية موهبة ، واذا بما تنتجه الاقلام يغرق في سيل
من هذه الكلمات الجبرانية : عرائس الليل ، ستجم في النور ،
اصابع الفجر ، رياح الكهوف ، خشوع الاودية ، ذيل الضباب
وسواها مما ابتدعته مخيلة جبران في عرائس المروج ، والاجنحة
المتكسرة ، والعواصف وغيرها .

العمومى وقيل على الادبين

من الامور الراهنة ان الامم التي تسبق اخواتها في مضار
التجدد وينتهي بها الجهد الى بلوغ الذروة لا يسعها الاستقرار
على حال لانها تعودت التطور والانتقال فتشخص الى هدف آخر
من غير ان تقطع بين ماضيها وحاضرها ، بينا الامم الاخرى
تسعى الى التشبه بها في اطوارها السابقة . سوى ان الحرب
الماضية (١٩١٤ - ١٩١٨) اسفرت في الادب عن ظاهرة
لا عهد بمثلها . ففما كان ادباء العربية يحاولون التمثل بنهضة
الفرنسيين في مطلع القرن التاسع عشر وفي منتصفه كانت
الفرنسيون يجسّون في الادب طرقاً جديدة تاركين وراءهم
ماضيهم المجيد اثرّاً من الآثار المقدسة لا قاعدة للمستقبل ينسجون
على مثالها . وقد يكون مردّ هذه الظاهرة الى ان الفرنسيين
الذين بلوا احوال الحرب الكبرى عزفوا عن الماضي لهوله

وبالغوا فقطعوا كل ما يربطهم به رجاء ان يبنوا علماً جديداً
 اضمن سعادة وأوفر رقياً . وكان للادب قسطه من هذه القطيعة
 قشابت في ميدانه الآراء وتشعبت المذاهب وكثر المؤسسون
 والبناء . وسرعات ما رأينا القوضى تحتل مكانها فتطغى



محمد حسين ميكل

الاشخصية على الشخصية ، والاهواء على الحقائق ، وتذوب
 التقاليد . . .

واذ كان من مألوف الادباء العرب السير على غرار
 الاوروبيين ، والفرنسيين منهم بوجه خاص ، فقد خيل الى

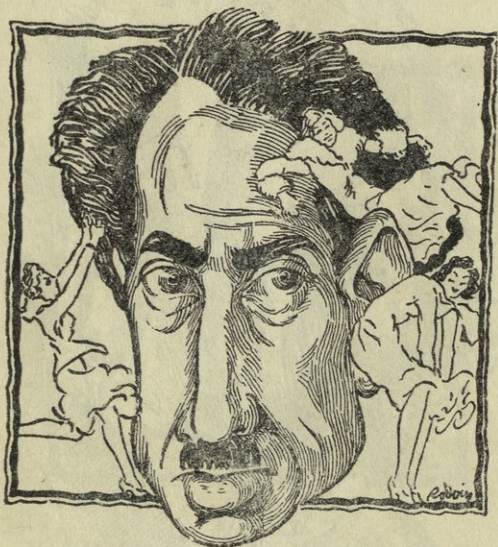
بعضهم الكثير انه يستمرى كل ما يصدر عن الغرب ، ولو
كان غريباً ...



محمود تيمور

وراجت سوق النقد ، فطلعت علينا طائفة من النقادين

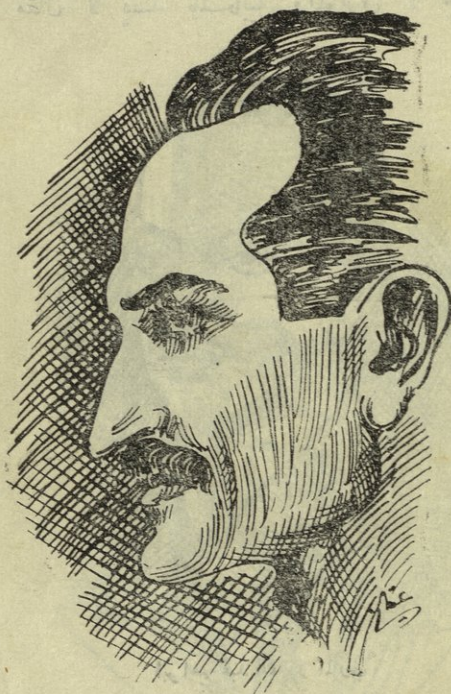
المتهوسين تقول بضرورة التمثل بنهضة الغرب في « الادب
الحلي ؟ » وراحت تشيد بالنظريات الحديثة (كأن الادب
متاع الى حين ، يتبدل تبدل الحذاء) فيطري بعضها فضائل



توفيق الحكيم

الادب المكعّب (الكوبيسم) ، وكان هذا اولى بوادر
السنوبيسم في مصر ولبنان على الخصوص . ويطري بعضها
الآخر مزايا الادب الواقعي (الرياليسم) ، او الادب الانطباعي

(الامبريسونيسم) ، او الادب الاستقبالي (الفوتوريسم) ،
او الادب الرمزي (السمبوليسم) . واصبحت هذه « الاليسم »



عبدالله
 عباس محمود العقاد

دلالة على اتساع معارف النقادين في الادب .
 ولم يكتف النقاد بهذا بل راحوا يقيسون الادب ويزنونه
 بروابط الفكر والروح

على نحو ما يفعل الغربيون الذين ضاعوا في مجاهل اوهامهم ،
 فكل نقاد لا يحمل ميزاناً وبيكاراً لا يدرج في عداد المثقفين ،
 وكل مقال لا يسند بالمكايل والموازن لا يحظى باحترام



ابراهيم عبد القادر المازني

المستنيرين من الادباء والمتأديين !

ولكن الاقلام القوية لم تحمل هذه المزاعم على محمل
الجد ، ولم يسع الاقلام الضعيفة تطبيقها ، فبقي التيار الادبي

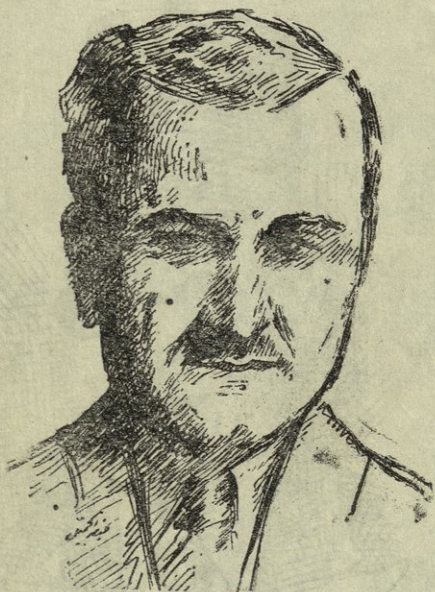
جارياً مجراه الرومنطقي حتى في اشد الادباء تحمساً للنظريات
الجدية . ففما كان بعض الادباء لاهياً بفقايع النظريات هذه



طه حسين

كان بعضهم الآخر منصرفاً الى خلق أدب وطني مستوحى من

الجو والتربة . وكانت الحركة الادبية في ذلك العهد
متمثلة في جريدتي « المعرض » للمرحوم ميشال زكور
و« البيان » للاستاذ بطرس البستاني ، صاحب ادباء العرب



بطرس البستاني

فيما بعد . وقد كان المصريون اسبق من السوريين
واللبنانيين في هذا المضمار ، فأصدر الدكتور محمد حسين هيكل
قصة « زينب » ، وفيها صور صادقة عن الحياة المصرية ،

واصدر الاستاذ محمود تيمور قصص « الوثبة الاولى » و « ابو علي عامل ارتست » و « الاطلال » . وهبّت من مصر لوافح ادب فيه يقظة وفيه حياة قوامه العقاد والمازني وطه



كرم ملحم كرم

حسين وتوفيق الحكيم وسلامه موسى ومنصور فهمي وغيرهم .
وعلى ادب هؤلاء جميعاً تغلب المسحة الرومنطيقية ويغلب
الوضوح .

وفي مستهل السنوات العشر الاخيرة قام رهط من ادباء

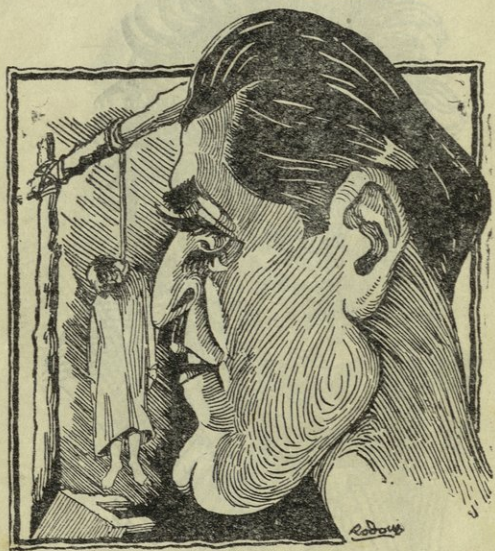
لبنان يعالج القصة ، وكان الاستاذ كرم ملحم كرم ، منشيء
 « الف ليلة وليلة » ، اول من نفخ في بوقها ، واذا بالاستاذ
 توفيق يوسف عواد يضع « الصبي الاعرج » ويتبعها بـ « قميص
 الصوف » ، والاستاذ خليل تقي الدين يصنف « عشر قصص »



توفيق يوسف عواد

و « الاعدام » . سوى ان الاسلوب الرومنطقي واللون
 الرومنطقي والانشاء الرومنطقي لم تظهر واضحة جلية كما
 ظهرت في « سيد قریش » التي سبق للاستاذ معروف

الارناؤوط ان اصدرها في اربعة مجلدات ضخمة . ففي هذه
 القصة البليغة يبدو اثر شاتوبريان واضحاً جلياً ، ففي لغتها
 وقوامها الانشائي واسلوبها اشبه ما تكون بـ « الشهداء » او
 بـ « آخر ايام بني سراج » .



خليل تقي الدين

وفي هذه الاثناء قامت في مصر وفي لبنان حركة تركزت
 في الشعر على الخصوص ، يغلب فيها الغموض على الوضوح ،
 وتغلب فيها الزخارف اللفظية على المعاني . وما عم الامر ان

أخذت الناشئة بهذه الخدعة الموسيقية البراقة ، والناشئة كالقبرة
يستهيها البريق ، فانطلقت تعباً من معيها وتسرف حتى



شاقوبريان

الشق ، وإذا بأدب لفظي آخر يحتل مكاناً له في دنيا الشعر
والواقع ان الغموض في الشعر دخيل على الادب العربي ،

فهو من الكتب لا من الجو ، فجو الشرق صريح مشرق فلا
مهر لهذا الغموض في خيال شعرائه . ويقينا انه دخیل علی
الادب الفرنسي ايضاً ، فجو فرنسا صريح مشرق ، وما كان



شارل بودليز

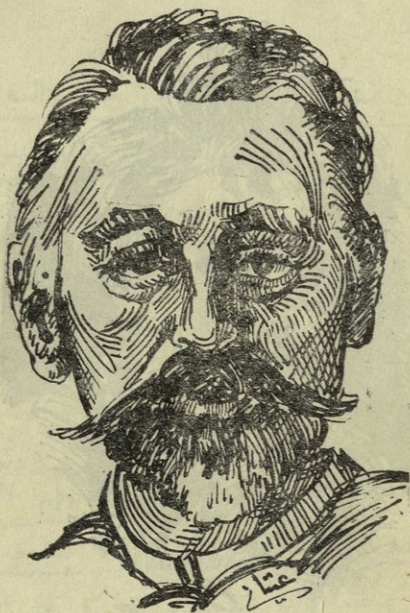
شعراؤها ، ما كان رونساو و كورناي وراسين وهوغو ولامرتین
وموسه وفيني وليكونت ده لیل و بودليز شعراء غامضين . وما
كان فرلين غامضاً ولا رنبو . ويغلب علی الظن ان ملارمه

وبول فور واضرابهما من الشعراء الفرنسيين الرمزيين استصدروا
ذلك الطابع المبهم الذي اتسمت به صورهم وافكارهم من الشمال
حيث الضباب والصقيع ، فهم يعبرون في احيان كثيرة عن
افكار نجدها في الشعراء الانكليز كشيلى وبراوننغ .

ونحن لا ندري اي مبرر لمثل هذا الغموض في شعرنا ،
 ولا يسعنا الا ان نأسف لتلك الغارة الاجنبية على صعيدنا الادبي
 وتلك السيطرة على خيال الجيل الجديد . وبما لا شك فيه ان
 اعجاب المتهوسين ببعض شعرائنا المستصدرين يعكر على الناشئة
 سلامة تفكيرها ، ويمنعها من الوصول بقدم رشيقة نشيطة الى
 السنى والوضوح ، ومن البقاء في نطاق تقاليدنا الوطنية .

لسنوات خلت استشهد اديب عربي بقول الصايي : « أفخر
 الشعر ما غمض عنك فلم يعطك الا بعد مماطلة منه . » ولا
 يستفاد من هذا القول ان الغموض قاعدة في الشعر كما يدعي
 اصحاب هذا المذهب ، فأفخر الشعر ليس ما غمض عنك ، فقد
 تغمض عنك صورة ليست من الشعر في شيء ، وقد يماطلك
 البيت طويلاً لتخلص منه الى فكرة سقيمة . خذ ملحمة
 « اورشليم المنقذة » للشاعر لوتاس واقرأها بكاملها تجد بعد
 مماطلة ان ما غمض عنك في هذه الملحمة المشهورة بالغموض

دون ما وضع لك شعراً . ولكن خذ ملحمة « الإنيادة »
 لفرجيل واقرأها بكاملها فلا ياطلك فيها بيت وهي من أروع
 وأرق ما أعطت العقول والقلوب البشرية .



استيفان ملارمه

وما الغموض إلا ضرب من التعبير ، ففي تعابير بسكال
 الواضحة افكار لا تقل روعة وحكمة وشاعرية عما في تعابير

الغامضة . هذا الى ان الغموض والوضوح في التعبير يتفاوتان
 يتفاوت مراتب الافهام ، فقد يغمض عني ما لا يغمض عنك
 اذا كنت اوسع مني ادراكاً واصفى ذهنًا . وليس الغموض



ارثور رنبو

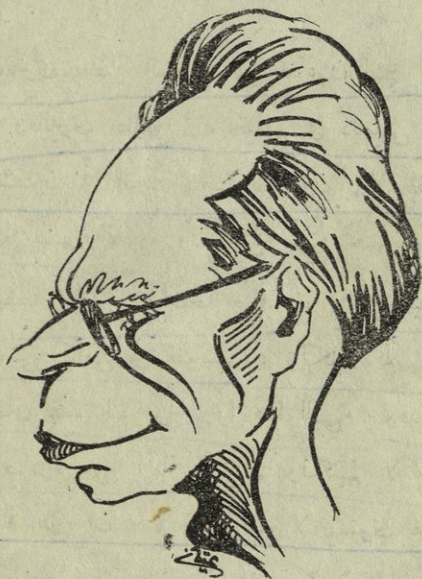
لزاماً للايجاز كما يخيل الى بعضهم . فالكاتب البليغ يلزم الاجياز
 في التعبير والوضوح في المعنى معاً ، وقد يرمز من غير ان
 يهتم . واذا صح القول بأن ثمة تعابير تعلو على الافهام الضعيفة

فلا يصح القول بأن هذه التعابير غامضة . ومع هذا فقد نقبل استعمال كلمة « غموض » للتعبير عن فكرة تستلزم بعضاً من الاجتهاد لتفهمها ، على اننا لا نقبل ان يتخذ هذا « الغموض » قاعدة في الشعر .

ويؤسفنا ان نرى بعض الشعراء ممن يدعون السير على غرار ملازمه وفرلين وفاليري يطلقون خيالهم في دياميس لا يرون فيها شيئاً ويتشبهون في التعبير عما لا يرون ولا يفهمون ،
ويحاولون اقناعنا بانهم انما يعبرون عن شيء يحسونه في اقصى نفوسهم ولا يستطيع ابرازه واضحاً صافياً . فالذي يحسونه في اقصى نفوسهم شيء كامن في نفوسهم ، ولكنهم لم يؤثروا قوة الغوص الى اعماق هذه النفوس ليروا هذا الشيء . وقد يسمعون احياناً اصواتاً صادرة من اعماق كياناتهم ولكنهم لا يفهمونها .
وليس هذا دليلاً على ان هذه الاصوات لا يستوي لها معنى ، فجوهر النفس صاف ولغة النفس واضحة ، غير ان ما يحيط بهذه اللغة من الطفيليات الناشئة عن ضعف ما في الجهاز البشري يخرجها خليطاً من التشويش والابهام .

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نستشهد بشيطان الاستاذ عمر فاخوري في احد فصول كتابه « الباب المرصود » ، فهذا

الشیطان يعيش في الحد الاقصى من حياتنا الداخلية ولا نصل اليه الا اذا استطعنا عبور هذه الحياة سالكين طرقها العميقة الى النور المجهول . ولكل امرئ شيطانه ، وشياطين الناس



عمر فاخوري

تختلف باختلاف امزجتهم وما تهباً لهم من الحيوية الكامنة في الطبيعة نفسها . وفضل هذه الشياطين هو في خلق عالم رحب بجانب العالم الضيق يفرع اليه الانسان كلما اصطدم في حياته

بماجز واراد اختراقه هرباً من آلامه . واكثر هذه الشياطين
 شيوعاً هو شيطان الشاعر ، وشياطين الشعراء كشياطين الناس
 تختلف باختلاف امزجتهم . ولا نخال الاستاذ فاخوري تحدث
 عن الرقى والسحر والشياطين والجن الا ليقول للشعراء إنهم في
 حاجة الى شياطين ، اي الى أنصافهم العلوية ، الى تلك
 المخلوقات الخالقة المدركة ما لا ندرك ، كأن سر الانسان ليس
 في العالم الانساني بل على الضفة الاخرى من هذا الوادي ،
 على الضفة التي لا يعيش فيها انسان ، بل جني وشيطان :
 الاقنوم الانساني الضائع من الانسان نفسه .

ولا يحتاج عمر فاخوري الى المنطق ليقنعنا بوجود هذا
 الشيطان ، فالمنطق دعامة ضعيفة خطرة أقوى منها الشعور
 الداخلي العميق . ويكفي المرء أن يسمع صوت هذا الشعور
 المجهول ، هذا الصوت الصادر من وراء المنطقة البشرية ، ليؤمن .

قيل إن الشاعر يخلق عالمه على طريقته ويعيش فيه . وقد
 تساءل عمر : « هل للاشياء في ذاتها وجود ام هي ظلال
 الفكر الانساني في هذا الفضاء ؟ وهل للاشياء في ذاتها قيمة
 ام هو الفكر الانساني يعطي القيم ويجرمها كما يشاء ؟ »

وربما اراد بهذا التساؤل ان يعرب عن شكه في ما قرّره

العلم . ولكن الفلسفة الصوفية نفسها تعترف بوجود الأشياء ،
 ويكفي وجود الفكر لاثبات وجودها . أما أن الفكر الانساني
 يعطي القيم لهذه الأشياء فصحيح . قال بلوتينوس الاسكندراني :
 « عندما تنظر الى شيء تميز بين هذا الشيء نفسه والنور الذي
 يظهره ، فبدون النور لا تستطيع رؤية الشيء . ولكن تصوّر
 انك صرت الى مكان ليس فيه الا النور فترى هذا النور
 صافياً كما أنك تحرق الى الشمس . ففي هذه المنطقة اللاشكلى
 لها ، في هذا النور الابيض الناصع ، تقف النفس وقد وصلت
 الى نقطة التصوّف . »

وهل وجهة نظر الاستاذ فاخوري في فصله هذا الا وجهة
 النظر الصوفية نفسها ؟ فالانسان لا يصل الى منطقة التصوف الا
 اذا تلاشى في النور المجهول ، في الله . والشاعر الذي يتلاشى
 في شيطانه يصل الى هذه المنطقة نفسها . وهذا التلاشي من
 الشاعر في شيطانه هو « اللاوعي » نفسه ، هذا « اللاوعي »
 الذي عبّر عنه الاستاذ فاخوري بكلمة « اللاوجداني » ، وهو
 « المنطقة التي لا سلطان للادراك عليها . »

على ان « لاوعي » الفاخوري ليس باللاوعي « الحام »
 الذي يخطط به بعض القوابل من الادباء الفوضويين ، فقد

قال : « وليس يعني هذا ان العبقريّة ، لاستمدادها من اللاوجداني ، وهي المنطقة التي لا سلطان للادراك عليها ، تكون فوضى بلا نظام . أجل انها تصعد من تلك الاعماق البعيدة خليطاً من شتى العناصر ، إلا أنها لا تلبث ان تدخلها في الوجداني وهي المنطقة التي يسيطر العقل عليها ، وفيها تعمل بعناء او من غير عناء ، بجهد او من غير جهد ، على تحقيق أجل نظام وحدة في اكثر العناصر اختلافاً ، وهذه هي معجزة العبقري . »

وصفة القول ان النفاذ من الحياة في المبهم الغامض للتعبير عنه بلغة واضحة شيء ، ومحاولة النفاذ الى هذا المبهم الغامض للتعبير عنه بلغة مبهمه غامضة شيء آخر . وبقيتنا انه لولا ذلك الوضوح المشرق في الفكر الفرنسي لما كان للادب الفرنسي ذلك الذبوع العظيم في مشارق الارض ومغاربها .

ونأتي بهذه المناسبة على ما ذكره الدكتور عثمان امين ، مدرس تاريخ الفلسفة في كلية الاداب بالقاهرة ، في مقال له عن « خصائص الروح الفرنسي » . فقد أسهب الكلام في وضوح التفكير الفرنسي مستشهداً بقول برغسون : « ان الفلسفة الفرنسية قد سارت دائماً على وفاق مع المبدأ التالي : ليس هنالك

روابط الفكر والروح

فكرة فلسفية مهما يكن حظها من العمق والدقة الا استطاع
بل يحسن التعبير عنها بلغة الناس المتداولة البسيطة . . . ان
تعقيد اللفظ وغموض الصورة والالتجاء الى المصطلحات الخاصة ،
كل ذلك يكاد يكون دائماً في منزلة القناع بلقته المؤلف على
فكر لم يوفق بعد الى ان يستبين ذاته تمام الاستبانة .

وما اجل واصدق قول الدكتور عثمان امين : « ان الكدّاب
الفرنسيين لا يأخذون بذلك الوهم الذي استولى على بعض
النفوس فجعلها تقلس عمق الفكر بغموض التعبير . والواقع ان
الفرنسيين على حق ، فليست كل المياه الملوثة بالطين مياهاً عميقة
ولا كل المياه الصافية مياهاً سطحية .»

وبعد ان وازن الكاتب بين اتجاهات التفكير الفرنسي
 واتجاهات التفكير الانكليزي والتفكير الالماني اظهر تفوق
 الاتجاهات الاولى التي تتميز بادراك معنى « الوضعي » ومعنى
 المثل العليا والايان بحقيقتها قائلاً : « ان هذين المعنيين يتمشيان
 جنباً الى جنب عند مفكري الفرنسيين بل يسيرون عندهم
 صديقين متحابين في ظل العقل او ملكة الحكم السليم . »
 واطهر ايضاً ان توجه التفكير الفرنسي الى الانسانية عموماً
 فلم تكن الفلسفة الفرنسية امتيازاً لطبقة دون اخرى بل ظلت

على اتصال مستمر بالعلوم والحياة ، يفسر الاثر الذي كان
لمفكري الفرنسيين لا في فرنسا وحدها بل في الانسانية بأسرها ،
وبوضوح لماذا لم توجد فلسفة تفوق الفلسفة الفرنسية في اشتغالها
على عناصر بشرية عامة .

ولعل اجمل ما اوضحه الكاتب « ان العقلية الفرنسية اينما
 تفتحت وازدهرت تجلت للناس عقلية روحية . على ان الروحية
 الفرنسية شيء بعيد كل البعد عن « الايديولوجيا » التجريدية
 المسرفة المتكبرة . واثبات الروح ليس انكاراً للمادة ، بل هو
 بالعكس تحديد لمهمة المادة ، حتى ليصح ان يقال ان هنالك
 الى جانب ⁷المادية وفوقها مبدأ يستخدمها ويهيمن عليها . فالمادي
 منكر للروح ، لانه منكر للحق ، اذ يراه هو القوة . اما
 الروحي فلا ينكر المادة بل يخضعها للروح ، وكذلك الفكر
 الفرنسي فهو يعترف بوجود القوة وسلطانها ولكنه يحاول ان
 يخضعها للحق . »

هذا ما قاله الدكتور عثمان امين .

وثمة حقيقة لا بد من التنويه بها ، وهي ان الاتحاد الفكري
 الوثيق بين فرنسا والشرق يقوم على حقيقة طبيعية راهنة هي
 ذلك التشابه بينهما في الجو والتربة . وهل الادب - وهو مجموع

شعر

الشعور والتفكير اللذين صيغت لاجلها اللغة - الا ظاهرة طبيعية ؟
 فالجو والتربة ينتجان كما ينتجان الحبوب والثمار . وبديهي ان
 وحدة المناخ تكون وحدة في المزاج يصدر عنها وحدة في
 الشعور والتفكير . فالتربة التي تمتد على هذه السواحل من هذا
 الابيض ، في هذا النطاق الجغرافي الذي يبدأ بجبل طارق وينتهي
 بسواحل اسيا الصغرى ، هي تربة واحدة والجو الذي يشملها هو
 جو واحد .

وثمة عاملان اساسيان عميقان في تأصل جذور اللغة الفرنسية
 في هذا الشرق ، احدهما ان التقاليد الفرنسية الثقافية توجه فرنسا نحو
 الشعور الكوني . فالفرنسي يعتقد اعتقاداً وطيداً ، اعتقاداً طبيعياً
 وعفويّاً ، بأن ثمة حقيقة انسانية لا تختلف باختلاف طبائع الناس .
 ويعتقد ايضاً ان هذه الحقيقة يستطيع الذكاء ان يفهمها واللغة
 الفرنسية ان تعبر عنها . والفرنسي لا يحب لغته الا لانه يعرف
 انها ليست زياً من الازياء ولا شكلاً من الاشكال بل هي عنصر
 من طبيعة فكرته . ولذلك نرى للاداة الثقافية الفرنسية قيمة
 واهمية عظمتين ، فهي - بوضوحها وتنظيمها - قابلة للاتقاط
 والبث . وهذه القابلية تجعل لها قيمة دولية او كونية على
 الاصح وتدرجها في عداد الممتلكات الانسانية . وبكلمة ان

الفرنسي لا يلبث في مجال الفكر ان يصبح بطلا انسانياً يُشخص اليه كلما فسح السبيل للدفاع عن الحقوق والحريات وكرامة الانسان .

هذا احد العاملين اللذين حيا اللغة الفرنسية الى الشرقيين حتى تأصلت جذورها فيهم . والواقع ان ثمة عاملاً طبيعياً وراء هذا العامل نفسه . فاذا صح ان حبة الارض او حبة الطبيعة تبدو في الادب كفضيلة من فضائل هذا الابيض المتوسط فقد أدركنا ادراكاً حاسماً كيف ان وحدة المناخ تكون وحدة في المزاج يصدر عنها وحدة في الشعور والتفكير .

اما العامل الاخر فهو اكتسابي جاءنا من الاحداث السياسية والاجتماعية التي تمثلت على مسرح الشرق ليس في عهد الثورة الكبرى وفي عهد الحملة النابوليونية فحسب بل في عهد الملوك ايضاً ، ومنذ القرن الثاني عشر حين استولت فرنسا على جزيرتي قبرص ورودرس فازدهرت فيها الفنون والاداب الفرنسية مطبوعة بأعراف الشرق .

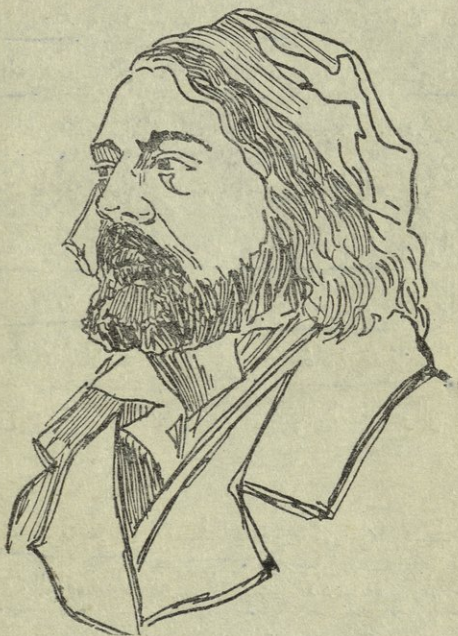
الادب العربي في نهضة المباركة

مما لا نزاع فيه ان الادب الفرنسي في المئة السنة الاخيرة لم يسده سيادة قوية الا مجريان او اتجاهان هما حركة الادب الرومنطقي وحركة الادب الواقعي . وهذه الاخيرة ظهرت في القصة على الخصوص وكانت مؤسسها غوستاف فلوير صاحب « مدام بوفاري » . ثم تنوعت هذه الحركة فكانت « الواقعية المتججرة » التي تمثلت في ده موباسان ، فهذا القصاص كان يصور الواقع تصويراً شمسياً غير آبه للاحاسيس وللعوامل النفسية . وكانت « الواقعية المتطرفة » التي تمثلت في اميل زولا ، فهذا القصاص كان يستعمل الكلمات العنيفة والمباشرة لكي ترسم الصورة الدائمة واضحة جليلة للعين .. وكانت « الواقعية الفنية » التي تمثلت في الاخوين ادمون وجول ده غونكور ، والواقعية الخيالية التي تمثلت في الفونس دوده .

اما في الشعر فقد تمثلت الواقعية في توفيل غوتيه ،
 وتودور ده بانفيل ، ولكونت ده ليل . وهذا الاخير ابداع
 المدرسة البارناسية التي ضمت امثال هريديا وسولّي برودوم
 وفرانسوى كوبه . وليست البارناسية سوى لون من ألوان
 الادب الواقعي . والى الادب الواقعي ينتسب شارل بودلير .
 على ان بودلير الذي اراد ان يصور عصره كما هو كان واقعياً
 على طريقة المصور رامبران ، فأظهر لنا الواقع - آلام الحياة
 واشجانها - مذهباً بنوع من النور المثالي ، غائماً في الوان ليلكية ،
 في الوان غامضة مشرقة تتضح بالسكر والقنون . وكل ذلك في لغة
 متينة ، عذبة ، كلاسيكية . في لغة خاصة نقية ، لا تنبو فيها
 كلمة عن موضعها . في لغة كأنها لغة بوالو في القرن
 السابع عشر .

ثم جاءت الرمزية فلم يقسط لها في شيء مما قسط للحركتين
 الرومنطيقية والواقعية ، فهي لم تسدّ الادب ، ولم تختلف اية
 رائعة ، ولم تعش طويلاً . ذلك ان الرمزيين كانوا من جهة
 يفتقرون الى الفكرة ويجربون فقرهم بالظلمات والضباب ، ومن
 جهة اخرى لا يعباون كثيراً بالنحو والعروض . وكانت كل همهم
 ان يأتوا بكلمات مغوية وبتعابير يتعمدون بها الشواذ . فلا

عجب اذا لم يعيش من شعر اساتذتهم كفرلين و ملارمه و مورهيا
 الا ما كان مستقيم التركيب ، جلي الصورة ، واضح التقاسيم ،
 منسجم الالوان .



تيوفيل غوتيه

فبول فرلين يعطي الشاعر حق الاعراب عن فكرته او
 عن شعوره بالاسلوب الذي يراه ادعى الى اخراج هذا الشعور

وتلك الفكرة . ولذلك نرى « الاهواء » الموسيقية تحتل مصارع
 ابياته الا التي عاشت منها ، وتطغى على العروض والتراكيب .
 فمهمة الشاعر هي ان يحلم لا ان ينظم ، وان يغني لا ان
 يكتب . ولكن مادامت الموسيقى تغني عن الشعر فما الفائدة
 من وجود الشاعر ؟ واذا كانت مهمة الشاعر ان يلحن لا ان
 يتكلم فأية قيمة تبقى لشعر كورناي :

Je suis jeune, il est vrai ; mais aux âmes bien nées
 La valeur n'attend point le nombre des années.

او لشعر راسين :

Apprenez, roi des juifs, et n'oubliez jamais
 Que les rois dans le ciel ont un juge sévère,
 L'innocence un vengeur, et l'orphelin un père.

او لشعر موسى :

Les plus désespérés sont les chants les plus beaux.
 Et j'en sais d'immortels qui sont de purs sanglots.

او لشعر الشريف الرضي :

وتلفت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

او لشعر جميل بثينة :

يموت الهوى مني اذا ما لقيتها ويحيا اذا فارقتها فيعود

... فلا وايها الخير ما خنت عهدا

ولا لي علم بالذي فعلت بعدي

وما زادها الواشون الا كرامة

علي وما زالت مودتها عندي

او لشعر ابي نواس :

اذا التقى في النوم طيفانا عاد لنا الوصل كما كانا

ياقرة العين ، فما بالناس نشقى ويلتذ خيالانا

او لشعر عبد الرحمن الاربلي :

كنت مشغوفاً بكم اذ كنتم شجراً لا تبلغ الطير ذراها

... فتراخي الامر حتى اصبحت هملأ يطمع فيها من يراها

... لا يراني الله ارعى روضة سهلة الاكناف من شاء رعاها

و لشعر الشعراء من هوميروس الى فرجيل ، ومن امرى

القيس الى خليل مطران ، ومن شكسبير الى كبلنغ ، ومن

دنتي الى دانونزيو ، ومن رونسار الى بودلير ؟

وليس ابعد عن فوريّة فولين من فن ملازمه المثقف

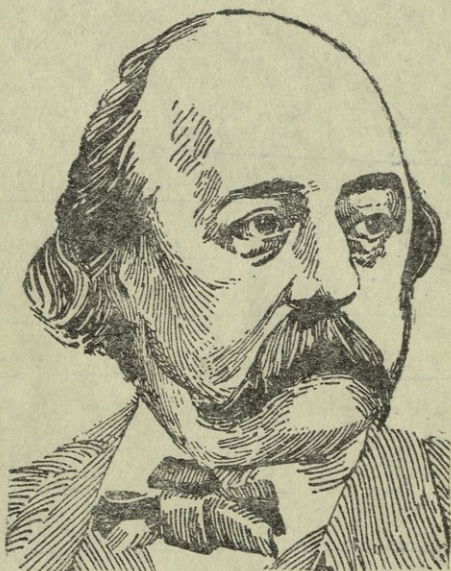
المتروّى ، هذا الفن الذي يتعمد للقارىء خلق اسباب تحمله

على التأمل ، وتضي به في مهامه من الاحلام ، باعراها عن

مجموعة من الابعاء الذاتية في تألف من الكلمات النادرة

مركبة بطريقة ذاتية ايضاً ، فيصبح الشعر احجية تحجب وراءها اغراض سرية او اهداف غير منظورة .

واني لاتساءل كيف يتمكن الشعراء ، بمثل هذا



غوستاف فلووير

الاسلوب او هذه الطريقة ، ان يكتبوا في المستقبل ملحمة
هذه الحرب او ان يعبروا عما يضطرب في نفوسهم من
الاغراض الاجتماعية ؟ واذا قيل ان النثر قد وجد لهذا الغرض

ف نقول ان الالفاذة لست اذاً من الشعر ، ولا الشاهنامه منه ،
 ولا الفردوس المفقود ، ولا المهزلة الالهية ، ولا ما كتب الشعراء
 من هوميروس الى فرجيل ، ومن اريء القيس الى خليل
 مطران ، ومن شكسبير الى كبلنغ ، ومن دنني الى دانونزيو ،
 ومن رونسار الى بودلير !

وبين فرلين وملارمه يقوم مورديا ، فقد جمع هذا الشاعر
 الانفعال الحساس الى الانفعال المثقف ، وخلص من الطريقة الرمزية
 المترددة بين فطرية فرلين ونظرية ملارمه الى الطريقة الكلاسيكية .
 وما عثم الامر ان اخذت الرمزية تعود الى الاصول
 الرومنطيقية ، وراح الرمزيون يحذون حذو جيرار ده ترفال
 وبودلير في التعبير عن اعطق ما في باطن الانسان ، عن ادق
 انفعالات الحس ، عن حياة الروح .

وهكذا عادت الرمزية في تلاميذ الرمزيين الى الحقيقة
 الابدية بعد ان حاولت فصل الفن عن الحياة . فقد خيل الى
 الرمزيين في بادىء الامر ان السيل الى التعبير عما قد لا
 يستطيع التعبير عنه بالكلام ، عن اعطق وأدق ما يختلج في
 النفس البشرية ، انما هو في تحرير الشعر من قواعد العروض
 الاساسية ، والانشاء من تقاليد التاريخية ، فكانوا فوضويين

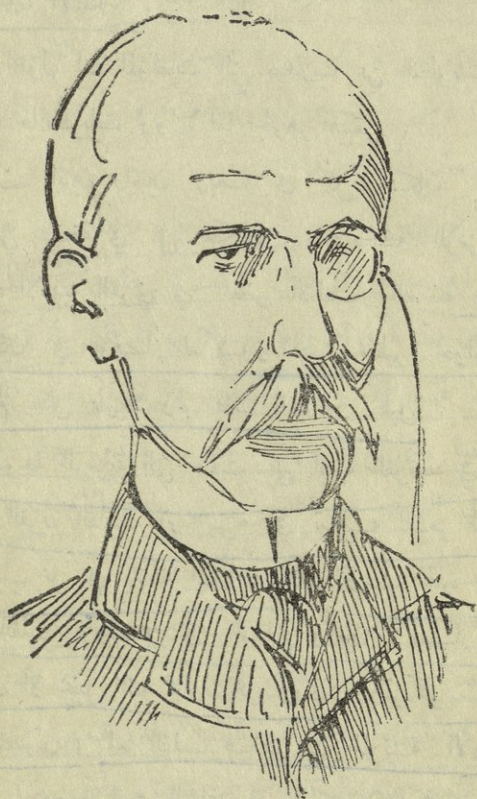
بدل ان يكونوا مصلحين ، والفوضى من مبادئ التفكيك
لا من مبادئ الابداع .

وصفوة القول ان المؤلفات التي صدرت عن النظريات ذهبت
 واضمحت ، فالنظريات تزول اما الجوهر فيبقى .

وكما ان اثنين واثنين اربعة في كل مكان هكذا
 الحقيقة فهي حقيقة في كل مكان . فالحركة الرمزية التي
 تسربت الى الادب العربي في بعض الاقطار العربية (وكان
 اول النافخين في بوقها الدكتور اديب مظهر حوالي سنة
 ١٩٢٦) لم تعيش طويلا ولم تخلف اي اثر جليل .

كان للموجة الرمزية التي طغت على ادب الفرنجة في النصف
 الاخير من القرن الثامن عشر في توجيه الشعر ليس في
 اوروبا فحسب بل في بلادنا ايضا ، فقد انتزعت هذه الموجة
 احس من القلب ووضعت في الدماغ والعين ، فصار الشاعر
 يفكر ويرى او يخيل اليه انه يفكر ويرى ، وتمرکز شعره في
 التصوير والتصور ، اما القلب فسقط عن المرتبة الاولى الى
 المرتبة الثانية ، وما لبث الشاعر ان هجره لانهما كه بالتفكير
 والزخرفة فجف عصوره « لقلة الاستعمال » واصبح الحب
 والحنان يرتديان في قلم الشاعر معطفا غليظا .

وتطورت هذه الحالة الشعرية في ادب شعرائنا في المهجر



هنري ده رينيه

الاميركاني فراخوا ينفجوتنا بروحانية طغى عليها التفكير الفلسفي

الصوفي . وما لبثت هذه الروحانية ان طغت عليهم جميعاً
 كأنهم تأثروا بعضهم بعضاً ، حتى اذا سكت صوت المدفع في
 الغرب وانعقد هذا الشاطئ سمعنا الاوركسترا الروحانية
 الصوفية تعزف انعاماً متشابهة توقيعاً وتفكيراً . فاذا قال
 جبران :

ليس في الغابات راعٍ لا ولا فيها قطع
 فالشتا يمشي ولكن لا يجاريه الريح

قال ميخائيل نعيمة :

تناسي زمان الصبا والشبابُ وسوقي مع الريح جيش السحاب
 وقولي : أفي السحب قطر فتى وقطر تقادم عهداً فشاب
 أليس الشباب ، أليس المشيب سحاباً ونحن دموع السحاب ؟
 وقال رشيد ايوب :

سمعت همس القلب في ليلة ليلاء قد ساد عليها السكون
 ومهجتي عند السهى سائحة

فقلت : «ماذا؟» قال : «عهد الهوى» الله كم مرت عليه سنون
 كأنه في الليلة البارحة

وفي هذا الشعر يغلب التفكير الفلسفي والارتقاء الى
 الصوفية . وقد لا تقع في قصائد شعراء المهجر على عاطفة

صادرة عن القلب الا في النادر القليل .

ويظهر ان شعراءنا الشبان أخذوا بهذه الروحانية فترسموها خطوة خطوة وامتزجوا بها روحاً وتفكيراً ، فأعرضوا عن الغزل الشائع (ولم يكن في هذا شيء من القلب ايضاً) ، وما هي الا ليلة وضحاها حتى صرنا نرى الصوفية الجبرانية تطفو على شعر الشباب في كثير من العمل والاعنات . فلا بد من حشو كل قصيدة بامثال هذه الكلمات : « اصابع الفجر الوردية . الكهف المسحور . يستحم بالعطر والنور . جنية الغابات . وهلم جرا . » وكثيراً ما كان الشاعر يتغنى بجبيته فتغلب الصوفية في اناشيده . . . كأنه يعيش برأسه لا بقلبه ، وكأنه يعيش بافكار غيره من الشعراء المتصوفين المتشائمين .

وفيا الشعراء يضطربون في هذه المحنة سقط بين يدي اديب مظهر مجموعة من الشعر للشاعر الفرنسي الير سامان فالتهمها ، وكثيراً ما كنت اسمعه يردد هذا البيت :

Le séraphin des soirs passe le long des brises.

ويقصد الشاعر بهذه الصورة ان نسائم المساء نقية طاهرة كأن الملائكة تمر عليها .

وبعد قليل طلع علينا اديب بقصيدته الرمزية « النسيم الاسود »

وأتبعها بطائفة مثلها . ولم يكن ليخطر في بال احد ان هذه



اميل زولا

القصاصدستكون فاتحة عهد مشؤوم في الشعر الرمزي . سوى ان

روابط الفكر والروح

قصائد اديب مظهر لم تفعل فعلها الا بعد مرور سنوات . ففي
العام ١٩٣٣ نقشى هذا الوباء في الناشئة فاتجهت من الشعر
الروحاني الصوفي الى الشعر الرمزي كما فهمته او بالاحرى الى



اديب مظهر

الجانب المريض من هذا الادب . وكما سقط البير سامان بين
يدي اديب مظهر سقط بول فاليري بين ايديها فتأثرته الى حد
الاسراف وراحت تدور في زوبعته حتى داخت . وبين ليلة

وضحاها حلّ « ارتعاش المنى » و « الفضاء المخضب »
 و « اللآلئ المغرورق » و « الزورق الغائم » محل « الكهف
 المسحور » و « جنية الغابات » و « اصابع الفجر الوردية... »
 وتحول النقد من البحث في قيم الادباء وما تنتجه اقلامهم الى
 البحث في المدارس والنظريات . واصبح قصارى ما يطمح اليه
 شاعر من شعراء تلك الناشئة ان ينسب الى بول فاليري أو الى
 مدرسة رنيو أو فرلين . ويكفيه ان يقتحم بعض الكليشيات
 اللفظية ويخرج على بعض القواعد ليحظى بهذا الانتساب .
 على أن جوّنا الادبي انقى من ان يتفاقم فيه مثل هذا
 الداء ، فمالبت الادباء ان عقبوا الى تقاليدهم على مثال ما حلّ
 في فرنسا ، فالحقيقة حقيقة في كل مكان .

لاربعين سنة خلت نشبت حرب ادبية هائلة بين شمالي
 المروج المزهرة التي يرويها السين في فرنسا وجنوبيها ، وقد
 سميت بحرب الضفتين ، فكان ادباء الحى اللاتيني ومونبارناس
 (اي ادباء الضفة اليسرى) يهاجمون ادباء جادة مونارتر في
 الضفة اليمنى . وكان لكل من الفريقين صحفه ومجلاته ومنابر
 ومقاهيه وخماراته . وظلت هذه الحرب مشتعلة حتى أقبلت
 الحرب الكبرى فأخت بين الضفتين وأجهزت على ما بقي من

الطفيليات العالقة بجسم الادب . ذلك ان للادب ، اشعراً كان
 أم نثراً ، رسالة انسانية عظمى منوطة بضمير الاديب ، أشاعراً
 كان أم ناثراً .

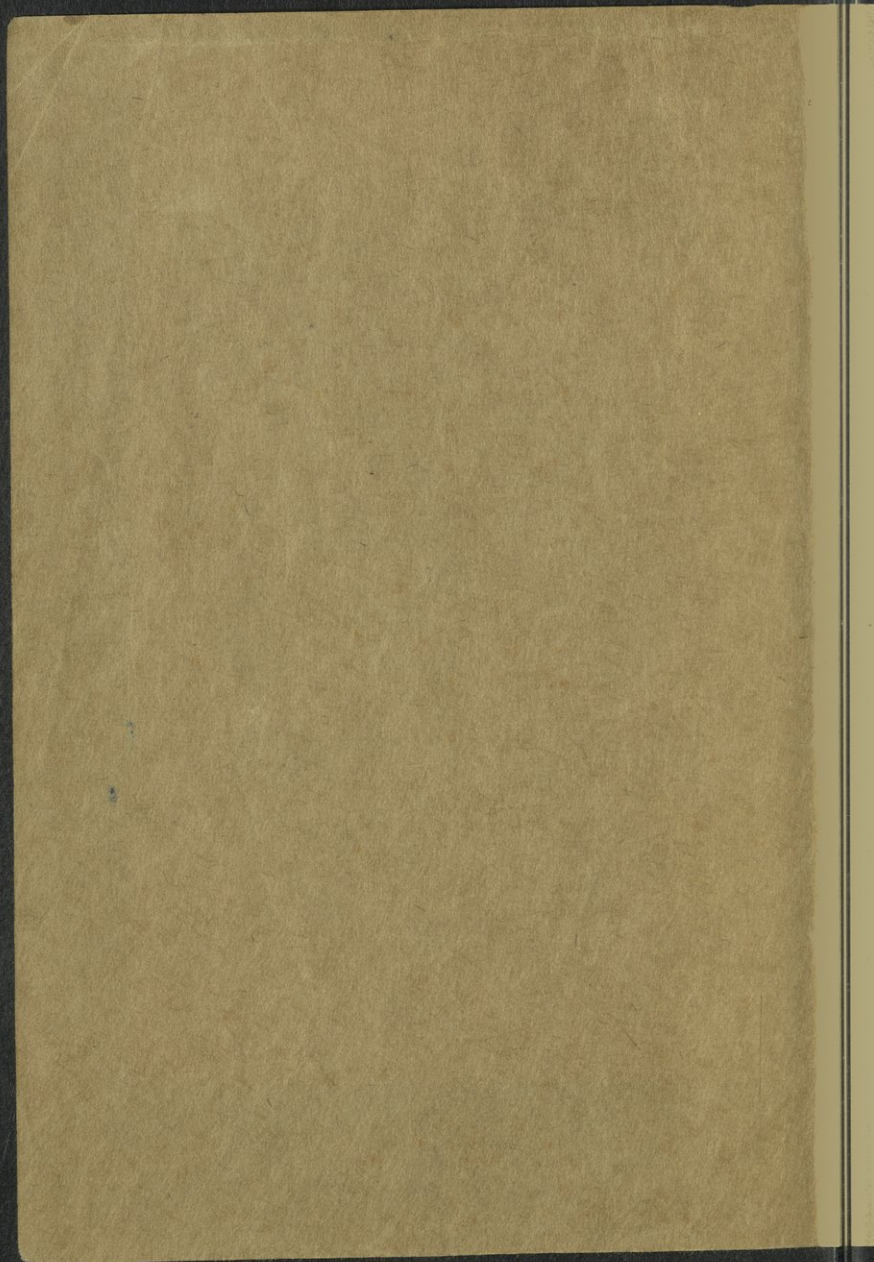
والواقع ان من فضائل الاحداث الكبرى رفع الاديب الى
 مستوى هذه الاحداث . ومن الحرق فصل الشاعر عن المجتمع ،
 فهو ملتقى منازع البشر والوتر الاعظم الذي تنقر عليه احساس
 الناس ومطامعهم . فلما تفاقم امر هذه الحرب وانعقد سمها في
 الاجفان ، وويلاتها في الارواح ، وعبرها في العقول والبصائر ،
 رأى الشعراء انفسهم تجاه ملحمة اين منها تلك الاصوات المضغوطة
 وذلك الزخرف المدخول وتلك المبهات المدغدة يعتمدونها في
 التعبير عن آلام الحياة واشجانها وعن الصلة الحميمة القائمة بين
 العالم الروحي والعالم المادي ، فانقضت الظلمات وتبدد الضباب
 وسكت الا الفن المتصل بالحياة ، الا الحقيقة الابدية .

وأية عبقرية أو أية موهبة شعرية ترضى ان تنقلص في
 اساليب مدرسة كائنة ما كانت ؟ فهزي ده رينيه الذي كان في
طلعة المتحمسين للشعر الرمزي ما لبث ان سلك سبيل التطور
الرشيذ فاستفاد من الشعر البارناسي بل من الشعر الرومنطقي
واذا هو على رأس شعراء فرنسا . ذلك ان نورانية هذا الشاعر

الجديد بين الشرق والغرب - ان الادب العربي يستمد اليوم
غذائه من تربته وجوه وله في نهضته المباركة هذه عدة العلم
وعدة الثقة بالنفس .

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع الاتحاد
في ٣ شباط سنة ١٩٤٥ .

اشترك في رسم صور هذا الكتاب :
قيصر الجميل ، مصطفى فروخ ، رضوان الشهاب ، محمد عيتاني



JAFET DATE DUE

23 JAN 2002
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
11 MAR 2009
Circulation Dept. 4

9 AUG 2008
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
MAR 2008
Circulation Dept. 3

JAFET LIB.
19 MAY 2015
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
15 OCT 2008
Circulation Dept. 3

JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
29 OCT 2008
Circulation Dept. 3

31 MAY 2010

ابو شبكة، الياس
روابط الفكر والروح بين العرب والنف

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030708



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

809

A524r

809

A524r 2A

C.I.